تفاصيل الجمل

شرح لامية ابن الوردي

د. عبد العزيز بن علي الحربي
أستاذ القراءات والتفسير المشارك بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار ابن حزم

مكتبة لسان العرب
www.lisanarb.com

تفاصيل الجمل

شرح لامية ابن الوردي

د. عبد العزيز بن علي الحربي
أستاذ القراءات والتفسير المشارك بجامعة أم القرى بمكة المكرمة

دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

ISBN 978-614-416-329-0

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها

دار ابن حزم
بيروت – لبنان – ص.ب : 14/6366
هاتف وفاكس : 701974 – 300227 (009611)
البريد الإلكتروني : ibnhazim@cyberia.net.lb
الموقع الإلكتروني : www.daribnhazm.com

بين يدي التفاصيل

وقع « تفاصيل الجُمل » بيد صاحبنا العلاَمة الدكتور: عائض بن عبدالله القَرنيّ، فأطرقَ إطراقةً لم يَرفعْ رأسه من بعدها حتى فاضت قريحته الفيَّاضة وذهنه المتوقِّد بهذه المقدِّمة المُنْبِئة عن أدبٍ جمّ وخاطر مشرق .. فصَّل بها لـ « التفاصيل » ثوبًا من زينة الأدب، ووضع لها تاجًا من جوهر البيان، ونسجَ لها من خيوط البراعة بسِنان اليراعة وِشاحًا من البلاغة ..

وإني أُبادله بحُسن الظن يقينًا من الإكبار، وجُمَلاً من الثَّناء .. ولقد كاد يسبقني قلمي لكتابة شيء أَذْكُرُ بِه قدْرَ نفسي عند نفسي .. غير أن من التواضع ما هو فخرٌ .. قال يحفظه الله:

لو علم ابن الوَرْدي بمن سوف يشرح لاميتَه لسكب سروره في قوافيه، ولأراق كأس فرحه في أبياته، كيف وشارحها من أذعن لبيانه أساطين البيان، وانبهر من جلال علمه دهاقنة الحكمة، أتاك هذا الكوكب النوراني يشق دياجير الغموض، وينير سراديب الإشكال، وما فضَّلتُ النثر يومًا على الشعر حتى رأيتُ نثرَه على شعر ابن الوَرْدي، فعلمتُ أن نثر الدُّرّ أجمل في العيون، وكان حقًا تشبيه الولدان بالدُّر المنثور، ولم يكن أبو محمد عبد العزيز بن علي

الحربي مقلِّدًا جامدًا باهتًا باردًا، بل كان -أثابه الله- متفرِّدًا في بيانه، متميزًا في إبداعه، يَغرف من بحرٍ لُجِّيٍّ، ويُنفق من تَرِكةٍ مباركة، مع ذاكرة وقّادة، وطبيعة منقادة، وذهن كصيِّب نافع، وخاطر كسَنا بَرْقٍ صادق.

إن هذا الشارِح عالمٌ قبل أن يكون أديبًا، وموسوعي قبل أن يكون ناقلاً، فهو أتى إلى هذه اللامية كامل العُدَّة، مليءُ العيبه، زاخر البحر، وقد أقبل كالسيل المتلاطم، لكنه يحمل دُرًا لا حجارة، وياقوتًا لا خشبًا، يُسعفه كتاب الله الذي أفرغه في قلبه، وسكبه بين جوانحه، فهو يتفيؤ ظلاله عن اليمين والشمائل، في ذاكرة كجنة بربوة أصابها وابل الواحي، فآتت أُكُلها من الفهم الثاقب ضعفين، فإن لم يُصبها وابل الدليل، فطَلٌّ الاستنباط، وندى الاجتهاد، ويؤيِّده في شرحه رسوخ علمي، استسهل في نيله الصِّعاب، واستعذب في جمعه العذاب، في سنين طوال بين المحراب والمنارة، والروضة والمنبر، فهو من المهاجرين لطلب الحِكمة، والأنصار في الذَّبِّ عن الحق، لزم بيته يفلي أسفار العلوم حرفًا حرفًا، ويفري أديم المعرفة شبرًا شبرًا، حتى أتى بشرح سحب به على سحبان البيان النسيان، وأنسى الناس سيبويه من أزمان، فلو اطّلع الكسائي على علمه لخلع له كساءه، ولو شاهد المُزَني قريحته، لملأ من مُزْنه إناءه، والرجل موهوب، يسابق قلمُه لسانه، وينافس خاطره جَنانه، مع تجويده لعلوم الآلة، فهو صاحب فنون، ولحديثه شجون، جدَّ حتى أخنى جواده، واجتهد حتى ودَّع سهاده، تصدق

بنومه على النجوم، وأهدى كراه الكواكب، فحاز رتبة الريادة، ونال وسام السيادة، ما أتحف به قلوب محبيه، وحيته أرواح عارفيه، فلـه من أعماق أهل الفضل تحايا، وإليه تسير من ديار الوفاء مطايا، فقِبلة أدبه عامرة، وكعبة شرفه آهلة، فجعله الله مداده وزن دماء الشهداء، وحشره في كوكبة الأنبياء، جزاء سهر ذابت معه حشاشـته، وثـواب تحصيل ذبلت فيه أجفانه، والله يحفظه لدنيا المعارف أستاذًا، ولعالم العلوم إمامًا، وصلى الله وسلم علـى قائـد الغُـرّ المحجَّلـين، وآلـه وصحبه والتابعين.

د. عائض القرني

٦/١٠/١٤٢٣هـ

مكتبة
لسان العرب
رابط بديل
lisanerab.com
أ. علاء الدين شوقى
www.lisanarb.com

مقدمة الطبعة الثانية :

الحمد لله على توفيقه وفضلِه، وتيسيره وطَولِه؛ إذ هدانا إلى العلم النّافع تعلّمًا وتعليمًا وتصنيفًا، ونسأله أن يزيدنا هدًى وتوفيقًا .. ولقد كان من توفيقه - عزّ وجلّ - تأليف هذا الكتاب وأمثاله ممّا هو من العلم الذي يُنتفع به، وكأين من إنسان ابتلاه ربُّه بأن زُيّن له سوء عمله فرآه حسنًا، فكتب للناس كتبًا ضالّة مضلّة لعلها تبقى إلى قيام السّاعة شاهدةً عليه وكاشفةً عن هواه، ويوم القيامة تكون عليه حسرة، وكأين من إنسان ابتُلي بالولع بالشهرة، فسطا على جهد غيره وتشبّع بما لم يُعط، وغار على كتب من سبقه ظلمًا وعُدوانًا، وغيّر فيها وبدّل، أو سلخ معناها وزوّر مبناها، وزها بنفسه عند الناس، وهانت نفسه عنده بما خدعها به، ومن أسقط نفسًا ممّن كان مبلغ همّه قولَ الناس فيه، ولا يُهمّه رأيه هو في نفسه ؟ نسأل الله معافاته ومغفرته.

لقد توالى طلب إعادة طبع «تفاصيل الجمل»، بعد نفاد الطبعة الأولى، ولكني صرفتُ الهمّة لكتب أخرى في طريقها إلى الطبع، منها: «المقامات»، و«كتاب أدلة الأحكام»، و«وجه النّهار .. الأوسط»، وأستجيبُ اليوم للرّاغبين من أهل العلم والأدب في تنقيحه وتصحيحه وطباعته ثانية .. وإني لأسأل المولى سبحانه أن ينفع به وينفع بقارئه، وأن يجعله من صالح ما نقدمه من آثار صالحة نافعة في الدّنيا ويوم يقوم الحساب.

مقدمة الطبعة الأولى :

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وآله وصحبه .

منَ الأحسنِ لنا أن نتعلَّم مِن تجارب أنفسنا بما نشاهده من خَطَل يعرِضُ في كلِّ حين، وتجارِب فاشلة أَحيانًا، ونتعلّم من تجارب من حولنا .. وإنه لمن جميل حظك أن يفشل غيرك، وتنتفع أنت بفشله، وليس هنالك أنكى على من عاداك من أن تجعله وسيلة نافعة لك دونه، وعظة وعبرة تعتبر بها .

ولو فعل الناس ذلك جماعات ودُولاً وأفرادًا؛ لما وقع أحدٌ في كثير من الخسران .. ولكن النسيان والآمال والحَدْس والأطماع تفسد الاعتبار، فيظلم الناس أنفسهم، يخرجون من الهلكة ويعودون إليها، ويصيبهم ما يضرهم، فيرجعون إلى أسبابه، ويرون غيرهم يشربون من كئوس الويل والنكال، ويَغفلون، وقد يَعتبِرون ساعة، ثم يكعِّون، كالمرأة التي يصرعها ألم المخاض، وتعزم وتقسم على أن لا تمكِّن من الحمل بعد ذلك، ثم تنسى، وتعود أطلبَ له مما كانت.

وإن ترد معرفة عقل الخاطئين من المكلَّفين، وضعف نفوسهم، وضآلة بصيرتهم، فاقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام].

ودعني أصوِّرْ لك المقام بتفصيل:

هؤلاء هم الظالمون .. بُعثوا وحُشروا جميعًا .. عُرضوا على شفير جهنم، النار تَلفحُ وجوههم .. تَسفع أبشارهم .. يتمنون أن يُرَدّوا إلى الحياة الأولى .. أن يُمنحوا فرصة أخرى، فلا يُكذِّبوا بالآيات والرسل .. ينتظموا في جماعة المؤمنين المصدقين برسل الله، ووعده، ونعيمه، وعذابه، ماذا لو أعطاهم الله ما تمنَّوا، ورُدّوا إلى الحياة الدنيا بعد وعدهم المؤكَّد، وبعدما رأوه من هوْل وفزَع، وبعد أن مَسَّهم لهب النار، وبعد ما أدركوا ما لا يوصَف .. ؟ أيتوقع أحد أن يُضيِّعوا نَفَسًا واحدًا في غير الطاعة إذا رُدُّوا .. ؟ أيَتصوَّرُ أحد أن يَكذِبوا في وعدهم .. ؟ قال الله ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام]، خابت الآمال كلها، وكذبت كل التصورات وبطل كل هاجس، ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

وفي حياتنا نماذج كثيرة تنبئ عن الخيبة ولو صغرت. وفي القرآن آيات كثيرة تُخبر أن أكثر الناس لا يعلمون ولا يعقلون .. وبالغ ابن الوَردي فقال عن أهل عصره:

كُلُّ أَهْلِ العَصْرِ غُمْرٌ، وَأَنَا ... مِنْهُمُ فَاتْرُكْ تَفَاصِيلَ الجُمَلْ

جرت عادة الناس أن يَذُمُّوا عصرهم، ويَعيبوا زمانهم، وليس هذا بسبيل مقيم، فإن الأزمنة ظروف لأعمال الناس وأحوالهم .. ولستُ أبالغ إن قلتُ: إن زماننا في بعض أحواله في كثير من بلاد الله خير من أزمنة مضت، فشا فيها الظلم والجهل والفساد .. ظلم لا يُبقي أملاً في صدر مظلوم، وجهلٌ لا تُتقن معه الفاتحة، وفسادُ يهلك المال والحرث والنَّسْل، ونحن اليوم في عصر لم يمرّ على العالَم مثله في وسائله وإمكانياته وحضارته، كله عجائب، واختراعات، وأحداث.

وكان مَن قبلنا من المسلمين لهم وسائلهم الخاصة في العلم، معظم تثقيفهم في المسجد .. واليوم أصبحت وسائلنا مشتركَة، سيف له حَدٌّ وحَدٌّ وحَدٌّ، وكلها قاطع ..

حدٌّ للشُّبهة، وحدٌّ للشهوة، وحدٌّ للخير، والغلبة سِجال، والصِّدق من عوامل النجاح .

لا أُطيل في هذا الاستطراد، فما هو إلا تشويق لـ «لتفاصيل الجُمل» الكتاب الذي وضعتُه شرحًا لـ «لامية ابن الوردي»، أقدمه بين يديك مفصَّلاً، سميته «تفاصيل الجُمل» انتزاعًا من آخر بيت فيها، رددت به العَجُزَ منها على الصدر، فكانت أكثر إمتاعًا وأحسن إيقاعًا.

قلتُ فيها مُلغِزًا:

ورديَّة الخَدّ[1]، كثيرةُ الصَّدّ[2]، أمرها مابين هَجر واطّراحْ، تهوَى الجِدَّ ولا يعُجبُها المُزاح، مرّ عليها مئات السنين، وهي إلى اليوم لم تبلغ الثمانين[3]، سَحَبتْ أذيال الملامْ، على أترابها من ذواتِ اللاَّمْ[4]، لفظها سحر حلالٌ، وإن استهلّت بالاعتزال[5]، إذ انقلبَ خليلها لم تجدْ له في اللسان طَعْما، ولا في العين رَسما، ولا في المقاييس وزنا ولا اسما[6].

تلك هي غَرَّاءُ ابن الوَردي، وهذا هو شَرحها .. جعلتُه سهلاً سائغًا .. إذ ليس من البلاغة في شيء أن يشرح الكلام بأصعب منه .. أسألُ اللهَ النفعَ والقَبول.

---

(١) لأنها لابن الورديّ.

(٢) لكثرة ما فيها من نحو: (اعتزل)، و(دع)، و(اترك) ونحوها.

(٣) أي: لم تبلغ ثمانين بيتًا، وقد مرّ عليها نحو سبعمئة سنة.

(٤) لأنها أشهر اللاّميات، وأخفّها روحًا ولفظًا وعروضًا.

(٥) لأنّ من البيان ما هو سحر، واستهلت القصيدة بقوله: «اعتزل ذِكر الغواني»، والمراد الإشارة إلى أنها سحر - والمعتزلة لا يصدقون بحقيقته - ولكنها جمعت بينهما.

(٦) هذه الجملة هي شقّ اللّغز الخفيّ. ومعناها: أنّ بحرها - وهو الرَّمَلُ، وكنيت عن ذلك بواضع علم العروض، وهو الخليل - إذا انقلب فقرئ (لَمَرَ) لم تجد له معنًى ولا وجودًا ولا قيمةً في معاجم اللّغة كاللّسان والعين ومقاييس ابن فارس. وقد ناسب الطعم اللّسان، والرسمُ العين، والوزن المقاييس.

ترجمة ابن الوَرْدي[1]

هو عمر بن المظَفَّر بن عمر، زين الدين بن الوردي، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، صرّح بذلك في قصيدته فقال:

مَعَ أَنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى نَسَبِي إِذْ بِأَبِي بَكْرِ اتَّصَلْ

ولد عام ٦٨٩هـ، نشأ وتفقّه بحلب، وكان شافعي المذهب، متفننا في العلوم، ونظمه في غاية الجودة.

وصفه السُّبكي في طبقات الشافعية (٦/٢٤٣) بأنه: «أحلى من السّكر المكرر، وأغلى قيمة من الجوهر».

وليَ القضاء، ثم لم يلبث أن عزل نفسه، ولزم التصنيف، قال في لاميته بعد تجربته تلك:

إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ لِمَنْ وَلِيَ الأَحْكَامَ، هَذَا إِنْ عَدَلْ

وله «ديوان شعر» مطبوع، وتاريخ يعرف «بتاريخ ابن الوَرْدي»، و«ألفية» في تعبير الأحلام، وتصانيف أخرى، وأنظام كثيرة، معظمها في النحو.

توفي عام ٧٤٩هـ رحمه الله.

---

(١) انظر ترجمته في: شذرات الذهب (٦/١٦١)، وطبقات الشافعية (٦/٢٤٢)، والدرر الكامنة (٣/٢٧٣)، والأعلام (٥/٦٧).

قال ابن الوَرْدي:

١- اِعْتَــزِلْ ذِكْــرَ الأَغَــانِي[1] وَالغَــزَلْ

وَقُــلِ الحَــقَّ، وجانِــبْ مَــنْ هَــزَلْ

اللغة:

اِعْتَزِلْ: أَمْرٌ مِـنَ الاِعْتِـزَال، وأصـل المـادَّة دالٌّ علـى الانفصـالِ والتَّنْحِية، وهو من موادِّ القرآن.

الأَغَانِي: جمع أُغنيَة، وهو الكلام بصوت حسنٍ، وأراد المصنِّف نوعًا منهُ؛ لأنه في الغالب يُطلَق على ما اشتمل على مجون.

والغَزَل: المحادثة في الحُبّ.

وهَزَل: بفتح الزاي، من الهَزْل، وهو ضد الجِد، وهـو مـن بـاب ضَرَب وفَرِح، وهُزِلَ من الهُزال، وهـو الضَّـعف مـن الأفعـال الـتي جاءَتْ على صورة المبني للمفعولِ، وهي مبنية للفاعل، ومنه قوله:

وَقَدْ هُزِلَتْ حَتَّى بَدَا مِنْ هُزَالِهَا كُلاَهَا وَحَتَّى سَامَهَا كُلُّ مُفْلِسِ

---

(١) في بعض النسخ: الغواني، جمع غانية، وهي المرأة المسـتغنية بجمالهـا الـذّاتي عـن الجمال المجلوب، ويقال: هي المستغنية بزوجها عن غيره.

الشرح:

وُفِّق ابنُ الوَرْدي في المطلع لفظًا وموضوعًا، فإنه وصَّى بوَصَايا وآداب كثيرةٍ، وأراد قبلَ ذلك أن يفرِّغ قلبَك وينقيَهُ مِن دَنَس المعصية، ورَسِيسِ الفِسْق، ومُجُونِ الهوَى، وقَوْلِ الزُّورِ، وسائرِ الآفات.

والاعتزالُ بالمَرَّة هو خير دواءٍ لكل المعاصي وأسبابِها من البشر وغيرِهم .

والاعتزالُ واجبٌ على من خَاف على نَفسه ودِينه .. اعتزال تركٍ وبُعد .. والمُتَمكِّنُ الصُّلبُ في دِينه، الثابتُ القويُّ لا يجب عليه ذلك، ولا يُستَحبُّ، ويُباحُ له إن يَئِسَ من إجابةِ من يدعُوه.

وفي القرآن الكريم أنواعٌ من الاعتزال وأسبابه، كقِصَّة أصحاب الكهف، وإبراهيمَ عليه السلام، ومريم عليها السلام، وفي الصحيح: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ المسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الجِبَالِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الفِتَنِ».

وللإمام محمد بن إبراهيم الوزير المتوفى سنة (٨٤٠ هـ) كتابُ «العزلة في آخر الزّمان»، أورد فيه خمسين حديثًا في العُزلة، وفضلها في آخر الزّمان .

وقولُه - في آخرِ البيتِ -: وَجَانبْ مَنْ هَزَلْ، أي: من كان هذا شأنَه، أو من كان غالبًا عليه، وإلاَ فمُجَانبة الجِدِّ في بعض الأحيان مما يُعِين على الجِدِّ، وفي ذلك أقول:

أرِحْ نَفْسَكَ الغَرْثَى بِشَيْءٍ مِنَ الهَزْلِ

لِيُصْبِحَ عَوْنًا لِلْحَرِيصِ عَلَى النُّبلِ

وكان النبيُّ ﷺ يمزح ولا يقول إلاَّ حقًّا.

٢- وَدَعِ الـــذِّكْرَى لأَيَّـــامِ الصِّـــبا

فَلأَيَّـــامِ الصِّـــبَا نَجْـــمٌ أَفَـــلْ

٣- إنَّ أَهْنَـــا عَيْشَـــةٍ قَضَـــيتُها

ذَهَبَـــتْ لَـــذَّاتُهَا، وَالإِثْـــمُ حَـــلْ

اللغة :

الذِّكْرَى: التَّذَكُّر.

الأيام: جمع يوم، يُطلَق في الأصلِ على النَّهار، ويُطلَقُ على أكثرَ من ذلك، وعلى الزمانِ الطويلِ.

وليس لهذه المادة تصريفاتٌ كثيرةٌ في معانٍ أُخرى.

الصِّبَا: صِغَرُ السِّن، بكسر الصاد، وبفتحها: ريح تَستقبِلُ القِبلةَ.

نَجْمٌ: النَّجمُ إذا أُطلقَ، انصرف إلى المعهودِ، وقد يُطلق على مانبتَ من الشَّجر بما ليسَ له ساقٌ، وحُمل عليه -عند بعض المفسرين- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦].

وَأَفَل: غَابَ، وغالب استعماله في النَّجم والكواكب.

أَهْنَا: بتخفيفِ الهمزةِ بعد إسكانِها.

حَلّ: بالمكان يَحُلُّ، بضَمِّ الحاء وكسرِها، وحَلَّ من إحرامه يَحِلُّ بالكسر، وحَلَّ العقدةَ يحُلُّها: بالضَّم.

وجميع الكلماتِ في البيتينِ مما وَرَد في القرآن.

الشرح:

دَع ذكراك وأشواقَك وحنينَك إلى لَيلى وأخواتِها، وسلمى ولِداتها، لأيام خلَتْ ومَضَتْ، كنت فيها خَفيف الحُلُم، طائشَ العقل .. يشير إلى أنَّ هذا لا يصلح من قَويِّ العَزم والإرَادة، فمن وقع في ذلك وهو كبيرٌ، فهو صَبِيّ، ومن جانبه في صباه، فهو كبير، فإنَّ زَمَن الصِّبا قد طواه الدّهر ومضى، بحيث لا يدلُّ على بقائِه دليلٌ.

وتَعَالَ لنُفَتِّش عن أهنأِ ساعةٍ قَضيتَها وتَمتَّعتَ فيها بأحسن ما يُشبِعُ هَوَاك مِن اللّذَّات المُحَرَّمة، هل بقيت لذتُها مَعك إلى هذهِ السَّاعة؟ هل جاوزت مُتعتُها تلكَ اللحظةَ التي قَارفتَ فيها .. ؟ لا لم يبقَ في قلبك إلا حَسرةٌ، إن كان فيه بقية من ذَماء ونبضةٌ من حَياة؛ للإثم الذي كتب عليك، واسودَّت به صحيفتُك .. والحَسرةُ غُصَّة وعَنَاء،

ولو وُضعت في كِفة، وسائر اللّذائذ المحرَّمة في كِفة، لأطارتها الحسرة في الهواء ولو كان مَعَها زُبرُ الحديد. قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾[الأنفال: ٣٦]. وقال: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧].

٤- وَاتْـــرُكِ الغَـــادَةَ لاَ تَحْفِـــلْ بِهَـــا

تُمْـــسِ فِـــي عِـــزٍّ وَتُرْفَـــعْ وَتُجَـــلْ

اللغة:

الغادة: الفتاة التي تتثنى في مشيتها وتميل .

لا تحفل بها: لا تجمع همَّك من أجلها، أصل معناه: الجمع، ومنه حفل الناس، والشاة المحفّلة .

الشرح:

الغرام من آفات العقل والقلب والعلم والدِّين، وهذه الأربعة هي أعلى وأجلّ من أن يُلعبَ بها، غير أن مسالك المحبة دقيقة، تنفذ دواعيها إلى المُحِبّ على حين غفلة، فتصرعه، فلا يبقى له حِراك.

والدّواء الأول هو الترك والابتعاد عنه، وعدم الاحتفال به، والسلوّ عنه بالاشتغالِ بما ينفع، بذلك يرتفع المرء عن الدنايا ويجل عن الرّذائل، ويمسي عند نفسه وغيره عزيزاً .. فالحُبُّ داعٍ إلى الذِّلّة

والقِلة والعِلة، ألم تسمع إلى قول ذلك الذي صادته صائدة القلوب، حتى بلغ درجة العبودية، وشرف بالانتساب لها ..

لاَ تَـــدْعُنِي إِلاَّ بِيَـــا عَبْـــدَهَا فَإِنَّهَـــا أَشْـــرَفُ أَسْـــمَائِي

وفي المقابر من لا يحصى من ضحايا الحب الهالكين، بلا دية ولا قود .

وأمر النساء إحدى آفتين، رأيتهما أسرى شيء في ضياع طالب العلم. والثانية: الاشتغال بالسياسة والاستغراق في تفاصيلها بالتحليل والتنظير والترجيح والنقاش، ثم الجزم بحصول النتائج، بناءً على المقدمات، فيخبط خبط عشواء، ويهيم في كل وادٍ بالظنون والمُيُون، فيخرج من نور العلم وضوابطه إلى مسارح بلا روابط، وكان يكفيه من ذلك معرفة الحال، وأقوال أهل الرأي والمعرفة[1].

٥- وَالْـــهَ عَـــن آلـــة لَهْـــو أطْرَبَـــتْ

وَعَـــن الأمـــردِ مُـــرتجِّ الكَفَـــلْ

اللغة:

اللّهو: معروف، وهو كاللَّعب، إلا أنه يجمع معه اللَّذة والمتعة، كما قال أبو الطيِّب:

---

(١) وثَمَّت آفة ثالثة بعد هاتين في المنزلة، هي حبّ المال والولع بجمعه، وحبّ النساء أفتك، ولكنه قد ينقطع، وأمّا حبّ المال فلا ينفكّ عنه مَن علِق به.

لِلَّهْـــوِ آونَـــةٌ تَمُـــرُّ كَأَنَّهَـــا قُبَـــلٌ يُوَدِّعُهَـــا حَبِيـــبٌ رَاحِـــلُ

ويخصّه قوم من العَرب بالولَد، وآخرون بالزوجة، وبـذلك فسـر اللَّهو في قوله عَز وجلَّ: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الأنبياء: ١٧].

أَطْرَبَتْ: حَرَّكَتْ فيكَ مشاعرَ الوَجْد.

الأَمْرَد: من (مرد)، وهي مَادة تدلُّ عَلى الملاَسَة والتجريد، ومنه المارِد، والخيلُ المُرد، والصَّرح المُمَرَّد، والأمرد من الرجـال: مـن لم ينبُت له لِحيَة.

مُرتَجّ: الارتجاجُ: الاضطرابُ.

الكَفَل: بفتحِ الكافِ والفاءِ: العَجُز، ومادة الكَافِ والفاءِ واللاَّمِ، أَصْلٌ يدلُّ على حِمْل وثِقَل.

الشرح:

اشتغل - أيها الإنسـان - عـن كُـلِ مـا يشـغَلُك مـن أنـواع اللَّهـو وأسبابه، فما هي إلا لواعِج تحركُ النفسَ والمشاعرَ، وتهيِّج الغَزيـرةَ والعواطِفَ، فيستجيبُ لها - إثر ذلـك - الأعضـاءُ والجـوارحُ مـتى وجَدَت بغيتَها، وحَصَّلت مطلوبها، أو تَهمدَ فتفعلَ فعل النَّـارِ الـتي تأكلُ نفسَها إذا لم تجدْ ما تأكلُه.

ولما كانت الفتنةُ حاصلةً من المَسْموع والمشَاهَد، عَقَّب بصنفٍ من النوع الآخَر، وخصَّه بالأمر؛ لما فيه من الفُحش والخروجِ عن الفِطرة.

وقوله: مُرْتجّ الكَفَل: نوع من الوَصف والتّرشيح، أراد به التحذيرَ، فوقع في ضدِّه، وقد كانَ في غُنية عن ذكر هذا المعنى وعن البيت الذي بعده، وهو:

٦- إن تَبدَّى تنكسِفْ شَمسُ الضُّحى

وإذا ما مَاسَ يُزْرِي بالأسَلْ

اللغة:

تنكسِف: الكُسوفُ: كلمة تَدلُّ على التَّغَيُّر، ومنه: كُسوفُ الشَّمسِ والقمرِ وهو ذهابُ ضوئهما.

ماس: المَيسُ: التَّبختُر والميلانُ في المَشي.

يزري: الإزراءُ بالشيء: التهاونُ بِه.

الأسل: الرِّماح؛ لدقَّتها.

الشرح:

تمادَى ابن الوردي في وصف مَا نهى عنه وزَجر، ووصفَه بالجمال البديع، الذي يُخجل الشمسَ أنصعَ المخلوقاتِ وأقواها نورًا وضياءً.

والعرب تُشَبِّهُ الوجهَ بالشَّمسِ، وتَستعيرُها للجَمَال والبَهَاء، فإذا قالت: شمسُ الضُّحى، كان ذَلك أبلَغَ؛ لأن الشَّمسَ في وقتها على أحسنِ صُورة؛ لأنها في الإشراق والغروب مُصفرَّة، وفي الظهيرة زائدة السطوع مَع حَرارة، وفي آخر النَّهار مُدبرة، وأما في الضحى فهيَ بيضاءُ مقبلةٌ هادئةٌ، تلاعبُ أشعتُها ورق الشَّجر وَأَغْصَانَه، ويتسلَّل لعابُها من بينِ فَتَحات المنازل وشُقوقِ الجُدْران، فتكوِّنُ خُيوطًا طويلةً عريضةً من ذرات الأرض وهبائها وتَتَحرّك تحرُّكَ السحابِ، وهو ما تُسمِّيه العربُ: لُعابَ الشَّمسَ.

ثم زاد في تَوصِيفِهِ، فقال: إنه يمشي مِشيةً فاتنةً باعثُها الاعتزاز بجَماله وحُسنِ قوامه، وثقتِه بإعجاب من ينظر إليه. ثم قال:

٧- زاد إن قِسناه بالبدرِ سَنًا

أَوْ عَدَلْنَاهُ بِغُصْنٍ فَاعْتَدَلَ

اللغة :

قِسناه: القياسُ: تقديرُ الشَّيء بالشيءِ، والمرادُ: شَبَّهنَاه.

سَنًا: بالقصر: اللَّمَعان، والمدِّ: الرِّفعةُ.

عدَلْنَاهُ: سوَّيناهُ .

الشرح:

يقول: بَلَغ جمالُ ذلك الموصوف مبلغًا بحيثُ يفوقُ جمالُه وحُسنه القمرَ الممتلئَ الذي يكونُ في التَّمام على أحسَنِ ما يكونُ في بهائه وطلعته، وهو قريب مما سبق في الشمس.

وهو في قَوامِه واعتدالِه مثلُ الغُصنِ الطويلِ الريَّان، بل يفوقُ الغصنَ في اعتداله واستقامتِه .

ثم قال:

٨- وافْتَكِرْ فِي مُنْتَهى حُسنِ الَّذيْ

أَنْتَ تَهْوَاهُ تَجِدْ أَمْرًا جَلَلْ

اللغة:

وَافْتَكِرْ: ابعَث الفِكر علَى التَّذَكُّرِ .

تهواه: من هوِيَ يَهْوى، بكسر الواو في الماضي وفتحها في المضارع، كأنهم رأوا أن الهَوى يرتقي من أسفلَ إلى أعلى، واللّغة العربية فيها من مثل هذه المعاني الدَّقيقة التي يُراعى فيها الشَّكل والتصريف كثيرٌ. ألا ترى أنهم قالوا في السقوط: هوَى يهوِي، فبدءوا بالحركة الفوقية؛ لأن السقوط من أعلى، وانتهوا بالحركةِ السُّفلية مراعاةً لذلِك؟

جَلَل: من الأضداد، يُطلق على الحقير والعظيم، والمرادُ -هنا- الأوَّل، والأصل أن يقول: جَلالاً، ولكنه حَذَف الألفَ للرَّويّ، وهو أيضًا لغة ربيعة؛ لأنهم يقِفون على المنصوب المنون بحذف الألف، وأشرت إلى ذلك في «ما هَبَّ ودَبّ»، فقلت:

وَقْـفُ رَبِيْعَـةَ بِحَـذْفِ الأَلِـفِ وَالثُّومُ: مُذْهِبٌ لِحَـبِّ الكَلَـفِ

الشرح:

ما أحسنَ هذا البيت!

يقول: تفكَّر في مُنتهَى ذلكَ الذي زَرَعَ الصَّبابَةَ في قلبِك وفتَنَك بجَمالِه، أتظن ذلكَ الغصنَ الرَّطيبَ سوفَ يبقى على حاله أخضر ريّان؟، كَلاَّ! كَلاَّ! سوف يعود إلى نهايتِه المحتومَة ذابلاً يابسًا خشِن الملمَس، وكذلك الجسمُ الجميلُ، والقوامُ الفاتن نهايته خَوَرٌ وضعفٌ وشَيبَة .. شَعْرٌ أبيض، وعظم واهن، وجلد يابس، وجفافٌ في العين، وتنكيسٌ في الخَلْق، وأَنَّات كثيرة، وبصر ضعيف، وضعفٌ في البصيرة، ورعشةٌ في الأطراف، وتَهالكٌ في الأعصَاب، وغيرُ ذلك مما لا يُذْكَر، هذه نهايتُه وهو حَيّ، فإذا ماتَ فنهايتُه أوضحُ وأجلى[1].

(١) ولبعضهم في معنى البيت فهمٌ آخرُ، حاصله أنّ المراد بمنتهاه مخرج طعامه .. أخبرني بذلك الشيخ الفقيه عبد الله بن عقيل (ت ١٤٣٢هـ) رحمه الله.

والحاصلُ أنَّ من تذكَّر نهايةَ كلِّ شَيء في الدُّنيا نَغَّصَ ذلك عليه عيشَته، ولمَ يصْفُ له إلا العملُ للآخرة وما والاه، فإن كلَّ نَعيم في الدنيا زائلٌ بزواله عَنك، أو بزوالِك عنه، وقَد وصَفَ اللّه الدُّنيَا بأنها لعبٌ ولَهْوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ وتكاثرٌ، أي: لَعب كلعبِ الصِّبيان، ولهوٌ كلهوِ الفِتيانِ، وزينةٌ كزينة النسوانِ، وتفاخرٌ كتَفَاخر الشُّجْعان، وتكَاثر كتكاثرِ التُّجَّار والدِّهقان، كما قال مَن قال من أهل التفسير .. ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾، [الحديد: ٢٠]، و«الكُفَّار» في الآية بمعنى: الزُّرَّاع؛ لأنهم يكفرون الحَبّ.

إذا ذَوى الغُصنُ الرَّطيبُ فاعلمَنْ أنَّ قُصَـــارَاهُ نَفَـــادٌ وتَـــوَى

ثمّ قال رحمه الله:

٩- واهجُـــرِ الخَمْـــرةَ إن كنـــتَ فتًـــى

كَيـفَ يَسْـعَى فِـي جُنُـونٍ مَـنْ عقَـلْ؟!

اللغة:

وَاهْجُر: الهَجر: تركٌ بالكلية، وأظنَّه تركًا بعد ملابَسة .

الخَمْرة: بالفتح: الخمر، وبالكسر: الخِمار .

الشرح:

هذه وصيةٌ أخرى يأمرُك فيها بحفظِ العَقْل، باجتناب ما يُذهبُه عَنك، فتصبحُ مشاركًا للحيوان البهيمي الَّذي لا عقلَ لَهُ ولا تَمييزَ، بل تزيد عليه بإحداث حَركاتٍ وأقوالٍ لا مَعنى لها إلا السَّفَهُ وذَهابُ الحُلُم، ومن يسعى إلى إهلاك عقله، وذهاب لُبّه ففي عقله شيء.

قال ابنُ حزم في كتابه «الأخلاق والسِّيَر: ٢٨»:

«ما رأينا شيئًا فسد، فعاد إلى صحته إلا بعد لأْيٍ، فكيف بدِماغٍ يتوالى عليه فسادُ السُّكْر كل ليلة، وإنَّ عقلاً زيَّن لصاحبه تعجيل إفساده كُلَّ ليلة، لعَقْلٌ ينبغي أن يُتَّهَم».

١٠- واتَّقِ اللّهَ فتقوى اللَّه مَا

جَاوَرت قَلبَ امْرئٍ إلا وَصَلْ

١١- لَيسَ مَنْ يَقْطَعُ طُرْقًا بَطَلاً

إِنَّمَا مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ البطَلْ

الشرح:

الوصيةُ بالتَّقوى وَصِيةٌ جامعةٌ وهِي كَما رُويَ عن عَليٍّ: الخوفُ من الجَليل، والعَملُ بالتَّنزيلِ، والرِّضى بالقليل، والاسْتعدادُ ليوم الرَّحيل، وهي المنجيةُ التي ما تشرّب منها قلبٌ إلا ملأتهُ نُوراً وبرهانًا وضِياءً، ووَصَلَ بِها صاحبُهَا إلى مَنازِل الأعلَين .. والمُتَّقي

هُو الإنسانُ الحقيقيُّ الذي يُحقِّقُ عزة نَفْسه عند نفسه بانتصاره عليها وغَلَبته على هواهُ، وهو البطَلُ الحقيقيُّ لا الذي يقطعُ المفاوزَ والقِفَار، ويجوبُ البلادَ والفدافدَ، فهذا متشبهٌ بالسِّباع والوحوش، وفي صغارها ماهو أعدى منه وأقطع .. والمُتَّقي متشبِّهٌ بالملائكة في سُمو روحِه ورفعةِ نفسه ومكانته، إذ بَعُدَ عن الرزايا والدنايا، ومن لا يهمه رأي نفسه في نفسه هو إنسانٌ ساقِط المروءَة، سيء الملَكة، ضعيف الهِمّة، وللحكماء في ذلك جمل مشهورة.

والحاصل: أن البطولة تكونُ بالانتصار، وكل انتصار بحسبه، وانتصار المرءِ على نَفْسه أمتعُ البطولات وأعلاها وأغلاها، ومن حكيم الشِّعر:

إِنَارَةُ العَقْلِ مَكْسُوفٌ بِطَوْعِ هوًى

وَقَلْبُ عَاصِي الهَوَى يَزْدَادُ تَنْوِيرَا

وقال ابن دُريد:

وَآفَةُ العَقْلِ الهَوَى، فَمَنْ عَلاَ

عَلَى هَوَاهُ عَقْلُهُ فَقَدَ نَجَا

١٢- صَدِّقِ الشَّرْعَ وَلاَ تَرْكَنْ إِلَى

رَجُلٍ يَرْصُدُ بِاللَّيْلِ زُحَلْ

اللغة:

الشرع: الشَّرع والشريعةُ والدينُ والصِّبغة والمِلةُ، يـرادُ بهَـا شـيء واحد، وفي نظم المترادِف[1]:

كالدِّين: شَـرْعٌ شِـرْعَةٌ شَـرِيعَةٌ وَصِـبْغَةٌ وَمِلَّـةٌ مَنِيعَـةٌ

لاَ تَرْكَنْ: لا تعتمد، أخذَ من اعتماد الإنسان على رُكن البيتِ في جلوسه.

يَرْصُدُ: يرقبُ.

زُحَـلْ: أحـد الكواكـب السَّـبعة (القمـر، والزُّهـرَة، والشَّمْسُ، وعُطارِدُ، والمُشتَري، والمَرِّيخُ، وزُحَل).

جمعها من قال:

زُحَلٌ شَرَى مَرِّيخَهُ مِنْ شَمْسِـهِ فتَزَاهَـرتْ لعُطَـارِدَ الأقمـارُ

الشرح:

صدِّق ما جاء به رسولُ الشَّرع فيمَا أخبَر به، وأَمَر ونَهى ولاَ تَرْكَنْ إلى أقوال المُنجِّمين والكُهان وكلِّ أفـاكٍ أثـيمٍ، يَـزْعُمُ أَنَّ للكوَاكـبِ

(١) منظومة، أبياتها (٢١١ بيتًا)، لديّ منها نسخة طبعت قـديمًا، سمّاهـا مؤلفهـا تـذكرة الحُفّاظ فيما ترادف من الألفاظ، ولم أعرف مصـنّفها، فمـن عرفـه فليخـبرني، لأني أريد إخراجها مع زيادات عليها وتعليقات.

تأثيرًا ذاتيًا في الكَونِ، يستدلون بأشياءَ، فيَصْدُقون في واحدة، ويكذِبون في تسع وتسعين، ولقد فضحت الأزمانُ مخاريقَ المُنجِّمين، ومن ذلك ما ذكَره المؤرِّخون عنهم أنهم حَكَموا بخَرابِ العالَم في جميع الأرض بأعظمِ ريح، فَفَزِع من صدَّقهم من طَغَامِ الناس وأوباشهم، وهم الأكثرُ، وَهرعوا إلى إعداد الأزوادِ وحَفْر المغارات، وكان ذلك عام ٥٨٢هـ، فمرّ العالَم بسلام ولم يتغير شيءٌ مما قالوا، وزعموا أن ذلكَ الخرابُ سوفَ يحصل بسببِ اجتماعِ الكواكب في الميزان .. وقد جاء ذمهم في آخر سُورة الشعراء، وَفي الأحاديث الصحيحة.

١٣- حَارَتِ الأَفْكَارُ فِي قُدْرَةِ مَنْ

قَدْ هَدَانَا سُبْلَنَا عزَّ وَجَلْ

اللغة:

حَارَت: الحَيرة بفتح الحاء: أن يقف التفكير، فلا يستطيع العقل أن يحكُم ولا يُميِّز .

سُبْلَنَا: بإسكان الباء، هو لغة، قُرِئَ بها في السَّبع، مُفردُها سَبيل، يُذكَّر ويؤنَّث، قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقال: ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦].

عَزَّ وجلّ: فعلان ماضيان، من العِزَّة والجلال .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشرح:

هذا حثٌّ مبطَّن على التَّفكير في متعلَّقات القُدرة، وإخبارٌ عن عَظَمة الله وقدرته التي مَن تفكر فيها دُهشَ وتحيَّر وردَّه ذلك إلى تسبيح الخالق، وتعظيمه وتمجيده .. ومن قُدرته أنه يهدي مَن يشَاء، ويضلُّ من يشاءُ، والحمد لله الذي هدانا سُبُلَنَا ووفقَنا إلى صالح العمل .

١٤- كُتِبَ المَوْتُ عَلَى الخَلْقِ فَكَمْ

فَلَّ مِنْ جَمْعٍ وَأَفْنَى مِن دُوَلْ

١٥- أَيْنَ نَمْرُوذُ وكَنْعَانُ وَمَنْ

مَلَكَ الأرضَ وَوَلَّى وَعَزَلْ؟!

١٦- أَيْنَ عَادٌ أَيْنَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ

رَفَعَ الأَهْرَامَ مَنْ يَسْمَعْ يَخَلْ؟!

١٧- أَيْنَ مَنْ سَادُوا وَشَادُوا وَبَنَوْا

هَلَكَ الكُلُّ فَلَمْ تُغْنِ القُلَلْ؟!

١٨- أَيْنَ أَرْبَابُ الحِجَا أَهْلُ النُّهَى

أَيْنَ أَهْلُ العِلْمِ وَالقَوْمُ الأُوَلْ؟!

١٩- سَـــيُعِيدُ اللَّـــهُ كُـــلاً مِـــنْهُمُ

وَسَـــيَجْزِي فَـــاعِلاً مَـــا قَـــدْ فَعَـــلْ

اللغة:

فَلَّ: ثَلَمَ، وسَيف مفلولٌ: مثلومٌ .

نَمْرُوذُ: بالذال -معجمةً ومهملةً- بنُ كَنعـان، مـن ولـدِ حَـام بـن نوحٍ، والمشهور أنه هو الذي حاجَّ إبراهيمَ في ربِّه .

كَنْعَانُ: أبو النمروذ المتقدم نَسَبُه .

عاد: يقول الإخباريون: هو عادُ بن عَوصِ بنِ إرمَ بن سامِ بن نوحٍ .. رُزق كَثيرًا من الولَد، وهو عاد الأولى، والثانية من وَلَده شَدَّادِ بن عاد، وكان لكل منهما مُلكٌ عَظيم، وإليهمَا أُرسلَ هُودٌ عليهِ السَّلام .

فِرْعَوْنُ: هو صاحبُ موسى، وقد اشتَغل أهل التـواريخ والتفسـير بالبحث عـن اسمـه، والاخـتلافِ فيـه، بمـا لا يزيـد فائـدةً يحسُـن السكوتُ عليها .

الأَهْرَام: جمع هَرَم، باقية إلى يومنا هذا بـالجيزة في القـاهرة تُعـد من العجائب السبع، قيل: بَناها سِـنان بـن المُهَلْهَـل مـع العمالقـة، وقيل: غيره.

أَرْبَاب: أصحاب.

الحِجا: العَقْلُ، وكذلك الحِجر -بكسر الحاء- والنُّهية، والحَصَاة، واللُّبُّ.

النُّهَى: جمع نُهْيَة -بضم النون- قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾﴾ [طه].

شَادُوا: بنَوْا قصورهم بالشِّيد، وهو الجَصّ، وهو لفظ قرآني في بعض تصريفاته.

القُلَل: جمع قُلَّة، ما علا من القُصورِ.

الشرح:

الموت قضيةٌ كُتبت على الخَلق لا تَقبل الاستثناء، وقد حَسَمها القرآن في أكثرَ من آية بأساليبَ مختلفة، قال عز وجل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن]، وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥][1]، وقال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]. والموت لُغْزٌ حَيَّرَ الألبابَ، وعَجَزت فيه جَميع الحِيل، فكم من جموع فرقها شذَر مذَر، وشغَر بَغر، وكم من عروشٍ هدّها، ودولٍ ثَلَّها، وأحباب فرَّقهم، وأصحاب شتَّتهم، لا ينجو منه صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا غني ولا فقيرٌ، ولا عزيزٌ ولا ذليلٌ، ولا ملِك ولا مملوكٌ، ولا سيدٌ ولا مسُودٌ، يقول طَرفة بن العَبْد الشاعر الجاهلي المشرك:

(١) والأنبياء (٣٥)، والعنكبوت (٥٧).

لَعَمْـرُكَ إِنَّ المَـوْتَ مَـا أَخْطَـأَ الفَتَـى

لَكَـالطِّوَلِ[1] المُرْخَـى وَثِنْيَـاه بِاليَـدِ

الكُلُّ في حكمِ الموتِ سواءٌ سواءٌ، أقرب شيء إلى الناس وهُمْ في حالهم أبعد ما يكونُ عنه، لَهم فيه خير وإن أبغضُوه، ولو بقي الناس بلا موت لما وسعتهم الأرض، ولازداد بغيهم وفسادُهم، ولم يكن لكثير من المكارِم معنى.

وَلاَ فَضْـلَ فِيهَـا لِلشَّـجَاعَةِ وَالنَّـدَى

وَبَـذْلُ النَّـدَى لَـوْلاَ لِقَـاءُ شَـعُوبِ[2]

ويقرِّر ابن الوردي هذه المسألة بطريق الاستفهام، الذي يَحمِلُ المخاطَب على الإقرارِ وعدمِ الإنكارِ، بِذكر الطُّغاة والجبابرة وأُولي البأس من أهل القرون الأولى، والزمانِ الغابر، أمثال عادٍ، وثمودَ، وفرعونَ، والنمرودِ، وكنعانَ، وهامانَ، وغيرهم، ممن مَلَكَ الأرضَ، أين هؤلاء؟ هل بَقيَ لهُم من أثرٍ أو عِثْيَر؟ هل ترى لهم من باقيةٍ؟ هَلكوا أجْمعين أبصعين، ولا تحسُّ منهم أحدًا، ولا تسمعُ لهم صوتًا ولا ركزًا ولا رِزًا ولا حِسًّا، ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ

---

(١) الحبل.

(٢) عَلَمٌ على الموت.

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان]، ولم تُغْنِ عَنهم أموالهم من شيء ولا قصورهم من شيء، ولم ينتفع أهلُ العقولِ والعلوم بعلومِهم ولا عقولِهم، ولم يحُل بينهم وبين الموتَ حائِل، ولا يمكنُ رجوعُهم إلى الدنيا، فغائب الموت لا يئوبُ، وسيبعثهم الله جَميعًا، فينبئهم بما عملوا، أحصاه الله ونسوه.

٢٠- أيْ: بُنيَّ اسْمَعْ وصايا جَمعَتْ

حِكَمًا خُصَّتْ بِهَا خَيرُ المِلَلْ

٢١- اطلُبِ العلمَ ولاَ تَكْسَلْ فَمَا

أبعدَ الخَيرَ على أهلِ الكَسَلْ

٢٢- وَاهْجُرِ النَّوْمَ وَحَصِّلْهُ، فَمَنْ

يَعْرِفَ المَطْلُوبَ يَحْقِرْ مَا بَذَلْ

٢٣- وَاحْتَفِلْ لِلْفِقْهِ فِي الدِّينِ وَلاَ

تَشْتَغِلْ عَنْهُ بِمَالٍ أَوْ خَوَلْ

٢٤- لاَ تَقُل قد ذَهبتْ أَربابُهُ

كُلُّ مَنْ سَارَ عَلَى الدَّرْبِ وَصَلْ

اللغة:

بُنَيَّ: تصغير ابني، ويجوز فتح الياء وكسرها وإسكانها.

وَصَايَا: جمعُ وصية، وهي ما يقدّمه الإنسان إلى غيره بِحِرصٍ؛ ليُؤخذ عنه، سواء كَانت كَلامًا أو غَيره.

حِكَمًا: جمع حِكمة، مأخوذٌ من الحَكَمَةِ التي تكون بحبلي الفرس في اللّجام، يُكبح بها جِماحُه، والأصل في معناها: المنع.

قال الشاعر:

أَبَنِيْ حَنِيفةَ أَحْكِموا سُفهاءَكُمْ إِنِّي أَخافُ عَليكمُ أَنْ أَغْضَبا

ولَهَا معان مُرادةٍ، منها: العلم، والحلم، والعدل، والبُنوة، والإنجيل، والقرآن.

وَاحْتَفِلْ: اِجْمَعْ هِمَّةَ نَفسك.

وَخَوَل: لَفظٌ يُستعملُ لِلمفرَد وغيرِه، والمذكَّر والمؤنَّث، وهي النَّعَم التابعةُ من الناس كالعبيد والإماء والخَدمِ ونحوهم. وفي الصحيح: «إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُم».

أَرْبَابُهُ: أصحابُه.

الدَّرْبُ: البابُ الكبيرُ الواسعُ الطَّريق.

الشرح:

هـذه وصـيةٌ لطالـب العلـم، عليـه أن يحفظَهـا حفـظ الأعمـى، ويحرص عليها حرصَ الشَّحيح، وأن يعَضَّ عليهـا بالنواجِـذ، وهـي وصيةٌ جليلة، مُشرَبة بلِبان الحكمةِ في ثَوبٍ من البلاغة جميلٍ، وخيرُ الشِّعْر ما كان حكمـةَ صِـدْق، قَـدَّم الشـاعر التَّنبيـهَ عَليهـا بخطـابِ الإيقـاظ، المصـحوبِ بالتَّـدليل، المحفـوف بالترغِيـب، المُخْتَـتَم بالتشويقِ بأنَّ هذا مما خُصَّت به ملةُ الإسلامِ، وهذهِ الأمة، فإن علـم هذه الأمة مسنَدُ.

فكانت أُولى الوصايا:

اطلُب العلم الذي هو حيـاة النفـوس، وغـذاءُ الألبـاب، وقـرينُ الإيمان، وأهلُه قرناءُ الملائكة، المتصفُون بالخشية وخـوفِ الخـالق عَزَّ وَجَل، وبه يفضُل كلُّ شيءٍ على سِواه من نوعه، حـتى الكـلابُ المعلَّمةُ لها فضلٌ على غير المعلَّمة.

ولما كان من آفاتِ الطلب: الكسلُ، بادَر إلى التحـذيرِ منـه، فـإن العلمَ والكسل لا يجتمعان، وقد يرتفعانِ، وذلـك أن الغايـاتِ الـتي يفضل بها الناسُ في الدنيا وفي الآخرة لا تحصـلُ بـالتواني والكسـلِ وإعطاءِ النفس ما تشتهي، بل لا بُد من الجِدّ.

فالجنة حُفّت بالمَكاره، والمجدُ لايُبلغ إلا برُكوب الصِّعاب والمعاناة، وما أبعدَ العلمَ على أهلِ الكسلِ والتواني وصِغار الهِمم، والعلمُ لا ينال إلا بالطموح والاستعداد النفسي والذهنيّ، وللشافعي في ذلك بيتان:

أَخِي لَنْ تَنَالَ العِلْمَ إلاَّ بِسِتَّةٍ
سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَانِ
ذَكَاءٌ، وَحِرْصٌ، وَاجْتِهَادٌ، وَبُلْغَةٌ
وَصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وَطُولُ زَمَانِ

أما النوم فهو آية من آياتِ الله، ونعمة من نعمه، جعله الله راحةً للأبدان في الليل والنهار، لا حياة للمرء بدونه، يفقد الإنسان فيه حواسّه إلا السمع، ولهذا اختتمت آية النوم بالإشارة إلى هذا، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم].

والنوم قليله مُضِر، وكثيره مُضِر؛ لأن كثرته تؤدّي إلى ترسُّب المواد الدهنية في الشرايين، والطبيعيُّ مابين أربع ساعات إلى تسع، ويعرف الإنسان كفايته من النوم حينما يستيقظ مرتاحًا نشِطًا، ويغلب على النوَّام السَّذَاجة، والبساطة، وضعف الطموح.

وللنوم أسرار وخفايا، وأحوال فيه عجيبة، ذكرتُ شيئًا من ذلك في «المقامة السُّهادية» في كتاب المقامات[1].

(١) مقامات أدبيّة، سمّيتها «ذات الأكمام»، طبعت.

وابن الوردي لم يُرِدْ هجره مطلقًا، بل أراد الحَث على الجدّ واطّراح الكسل، والتنبيه على قيمة الوقت الذي هو الحياة بعينها، ولا يجازف بحياته عاقل، فليكن طالب العلم أبخل الناس بوقته، وأضَنَّهم بساعاته .. إن من أوقاتنا -معشر أهل العلم- ما يُنزع منا نزعًا، ويستفرغ منا بالقوة، يطير به من بين أيدينا من لا يعرف ثمنه، ولا يقدِّر قدره .. ومن عرف غاية وجوده، ملأ ظرف زمانه بنفيس الجوهر وكريم الدُّر، من شريف العلم، وصحيح العمل.

ومن أهم العلوم علمُ أحكام الشريعة، وهي المستنبَطَةُ من الكتابِ والسُّنّةِ، وفي الصَّحيح: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» وهو العلم الذي يَحتاج إليه كلُّ أحد، فما من أحد إلا يتعلق بأمره حكم شرعي يشارك فيه الأمة أو بعضها، وقد يكون التصدر فيه مما يُقرِّب إلى الدنيا، ويجلب المالَ، والرُّتب الرفيعة، ولذلك نبّه الشاعر إلى ترك الاشتغال عنه بمثل هذا. يقول ابن ونّان في الحث على درس الفقه والحديث:

وَخُصَّ عِلْمَ الفِقْهِ بِالدَّرْسِ وكُنْ

كَاللَّيْثِ أَوْ كَأَشْهَبٍ والعَتَقِي[1]

(١) الليث، هو: ابن سعد الفهمي ولاءً، إمام أهل مصر في عصره (ت ١٧٥هـ). وأشهب، هو: ابن داود القيسي، صاحب الإمام مالك (ت ٢٠٤هـ). والعتقي، هو: عبد الرحمن بن القاسم العتقي المصريّ الزاهد، تفقّه بالإمام مالك (ت ١٩١هـ).

وَفي الحـــديثِ النَّبـــوِي إِن لَـــمْ تَكُـــن

مِثْـــلَ البَخَـــاريِّ فَكُـــنْ كَـــالبَيْهَقِي[1]

وقد يكون من العوائق التي يضعها الشيطان أمام طالب العلم زرع اليأس من إدراك ما أدركه السابقون، فيقول: ذهب أهل العلم وزمانهم، وهذا زمان سوء وصبر، وفسد الناس جميعًا والزمن، وذهب الكرام بأسرهم.

يقول ابن الوَردي في الجواب عن هذا: لا تقُل قد ذهبت أربابه .. فكم ترك الأول للآخر، ولا فرق بين الزمان والذي قبله إلا بكثرة الفتن والصوارف وضعف الفهم واختلاف الوسائل، وأما العقول فهي العقول.

فسِرْ - أيها الطالب - في طريق العلم الذي يُسهِّل لك طريقًا إلى الجنة، فكلُّ سائر على الدرب واصِل، وأول السيل قَطرة، وأول السير خَطرة .

وللشّافعي في طلب العلم أبيات حِسانٌ:

سَهَرِي لِتَنْقِيحِ العُلُومِ أَلَذُّ لِي ... مِنْ وَصْلِ غَانِيَةٍ وَطِيْبِ عِنَاقِ

وَتَمَايُلِي طَرَبًا لِحَلِّ عَويصةٍ ... أَشْهَى وَأَحْلَى مِن مُدامة ساقِ

---

(١) البخاري، هو: محمد بن إسماعيل، صاحب الصحيح (ت ٢٥٦هـ). والبيهقيّ، هو: أحمد بن الحسين الشّافعي، من أئمة الحديث والفقه (ت ٤٥٨هـ).

إلى أن قال:

أَأَبِيتُ سَهْرَانَ الدُّجَى وَتَبِيتُهُ نَوْمًا وَتَبْغِي بَعْدَ ذَاكَ لَحَاقِي

ثم قال المصنّف:

٢٥- فِـي ازْدِيـادِ العِلْـمِ إِرْغَـامُ العِـدَا
وَجَمَـالُ العِلْـمِ إِصْـلاَحُ العَمَـلْ

٢٦- جَمِّـلِ المَنْطِـقَ بِـالنَّحْوِ فَمَـنْ
يُحْـرَمِ الإِعـرابَ بِـالنُّطْقِ اخْتَبَـلْ

٢٧- وَانْظِـمِ الشِّـعْرَ وَلاَزِمْ مَـذْهَبِي
فِـي اطِّـرَاحِ الرِّفْـد .. فَالـدُّنْيَا أَقَـلّ[1]

٢٨- فَهْـوَ عُنْـوَانٌ عَلَـى الفَضْـلِ وَمَـا
أَحْسَـنَ الشِّـعْرَ إِذَا لَـمْ يُبْتَـذَلْ

٢٩- مَاتَ أَهْلُ الفَضْلِ[2]، لَمْ يَبْقَ سِوَى
مُقْـرِفٍ أَوْ مَـنْ عَلَـى الأَصْـلِ اتَّكَـلْ

---

(١) في بعض النسخ: لا تبغ النحل .
(٢) مثلث الرّاء.

اللغة:

إرغام العِدا: إذلال الأعداء، والإرغام .. مأخوذ من الرِّغام[1]، وهو التّراب، كأن المرغم وُضِعَ أنفه فيه إذلالاً له .

جَمِّلْ: حسِّن .

النَّحْو: علم الإعراب .

الإِعْرَاب: الإفصاح .

اخْتَبَلْ: أصابه خبال، أي: حيرة تفسد عليه الإصابة في القول .

الشِّعر: ضرب من الكلام موزون مقفّى .

اطِّراح: ترك .

الرِّفْد: بكسر الراء: العَطاء .

عُنْوَان: شِعار، وفيه لغتان أُخريان، إبدال النون لامًا أو الواو ياءً .

مُقْرِف: دنيء .

اتَّكَلْ: اعْتَمَد .

الشرح:

تحصيلُ المعالي مما يرغم الكاشح والعدوّ ويعذّب الحاسد، وأشرف المعالي وأغلاها وأعلاها ماقرّبك من الخير والإيمان، وحصل به الرِّفعة في الدُّنيا، وللعلم من ذلك حظ وافر، إذا حصله

---

(١) في بعض النسخ: الجود .

المرء طلبًا للدّنيا حقق له ذلك بقدر جهده وحيلته، وإذا حصله للآخرة وثبت على الصدق في العزم تحقق له أمر الآخرة والدنيا، ومن ذلك حسن الذكر والشرف .

وتمر بالناس أوقات تراهم فيها راغبين في العلم محبين لأهله متشبهين بهم، ثم لا يلبثون أن يكفوا عنهم راجعين، كأنما نزعت تلك الرغبة من قلوبهم، وترى منهم من ينتقل في طبقات أهل العلم بحسب المصلحة، وإقبال الدنيا عليه، فإذا أدبرت راح إلى طبقة أخرى . . .

والعلم كالحديقة ذات الظلال الوارفة والأشجار الخضرة، فإن حفّها من جوانبها زهر الورد، ونور الأقحوان وفاح منها روائحها الزاكية زادها ذلك جمالاً وحسنًا، وكذلك إذا اجتمع العلم والعمل وحسن الأدب .

اللسان العربي أعذب الألسنة، ولا يكمل له جماله إلا بالإعراب، والقانون النحويِّ، والنحوُ واحد من العلوم الضرورية، التي يجب أن يدرسها طالب العلم، وهو علم محدود لا يقبل التوسع؛ لأنه يخضع لقوانين محدَّدة، وضعها السابقون وإنما يقبل الزيادةَ والتوسعَ من العلوم ما كان فيه إبداع وخيال أو كان فيه قابلية التغيير بحسب ما تطلبه الحضارة والأزمان، وعلمُ النحو ليس كذلك؛ لأن قواعده مأخوذةٌ من نصوص لا نملك التبديل فيها ولا التعديل، وهي القرآن، ونصوص الشعر والنثر، التي يُحتَجّ بها، وما من عالم في

عصور التصنيف إلا تعلم النَّحو، إلا أن يكون علمه لا يحتاج إلى قواعده كالرياضيات والطب وغير ذلك، وإلا فلا ثقة بعلم من لا يعرف الإعراب، وهو ساقط من أعين النبلاء، كما قال الشاعر:

وَيُعْجِبُني زِيُّ الفَتَى وَجَمَالُهُ وَيَسْقُطُ مِنْ عَيْنَيَّ سَاعَةَ يَلْحَنُ

وكما قال الآخر:

النَّحْوُ يُصْلِحُ مِنْ لِسانِ الأَلْكَنِ[1] وَالمَرْءَ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ

وقال بعض الظُّرفاء:

كُلُّ فَتًى شَبَّ بِلاَ إِعرَابِ فَذَاكَ عِنْدِي مَثَلُ الغُرَابِ

وَإِنْ رَأَيْتَهُ لخَودٍ[2] عَاشِقَا فَقُلْ لَهَا: دَعِ الغُرَاب النَّاعِقا[3]

وصدق ابن الوردي: من حُرِمَ الإعراب والإفصاح في نطقه، تحيّر وتجمجم .. وقد يتغير المعنى بسبب تغير الإعراب، وإذا رأيت من يذم تعلم النحو، فاعلم أنه عسر عليه، كما عَسُر على ذلك الأعرابي الذي جلس في بعض حِلق النحو، فلم يفهم منه شيئًا، فأنشأ يقول:

سَأَتْرُكُ النَّحْوَ لأَصْحَابِهِ وَأَصْرِفُ الهِمَّةَ فِي الصَّيدِ

---

(١) من كان في لسانه حُبْسَة.

(٢) المرأة الحسناء.

(٣) لأنّ من لا يُعربُ، أي: يفصح في كلامه، كلامه غير مفهوم يشبه نقيق الغربان.

إنَّ ذَوِي النَّحْـــوِ لَهْـــم هِمْــــ ـمَةٌ مَوْسُـومَةٌ بِـالمَكْرِ وَالكَيْـدِ
يَضْـرِبُ عَبْدُاللَّـهِ زَيْـدًا وَمَـا يُرِيـــدُ عَبْدُاللَّـــهِ مِـــنْ زَيـــدِ

ولا نرى مع ذلك أن يُفني الطالب فيه العُمُر؛ لأنه علم آلة، يُتعلم لغيره لا لذاته، وحسب الطالب من ذلك فهم «ألفية ابـن مالـك»[(١)]، وما في معناها.

وأما نظم الشعر فهو من جمال الكمـال، وكمـال الجمـال، وابـن الوردي لم يقصد نظم الشعر العلميَّ وحده، بـل قصـد نظـم الشـعر مطلقًا، وهو يزين بهاء البيان، ويزيده عذوبة وقبـولاً، والإكثـار منـه في الإنشاء والخطابـة إكثـارًا فاحشًـا ممـا يـزري ويفـوت المقاصـد والكليات على المتكلم والسامع أو الكاتب والقارئ.

وكان ابن الوردي شـاعرًا، وسِفره هـذا شـاهدٌ علـى رقّـة طبعـه وجمال أسلوبه.

وقوله: فاطِّرَاحُ الرِّفْدِ فِي الدُّنْيَا أَقَل، أي: تـرك العطـاء في النـاس قليل، يريد أن يقول: إن مذهبه كذلك. وهذا المعنى - مع صـحته - لا يأتلف مع سهولة نظمه وجمال سبكه، ولعل الكلام هكذا:

---

(١) كتبت عليها شرحًا مُيسرًا، يجلـي عباراتهـا ومقاصـدها بلفـظ مـوجز، يحتـاج إليـه المبتدئ، ولا يستغني عنه المنتهي.

..... وَلاَزِمْ مَـــــذْهَبِي فِي اطِّرَاحِ الرِّفْدِ، فَالدُّنْيَا أَقَلْ

ولهذا عَدَّلتُه في الأصل.

أي: لازِم مذهبي ومسلكي في ترك العطايا، وابتغاء المال من وراء الشعر، فالدنيا أقل من أن يبذل فيها المرء ماء وجهه وشيئًا من دينه، وقد ورد في المدَّاحين ماورد، فإذا كان المادح ممن ينتسب إلى العلم أسقطه .

والشعر من عناوين الفضل والأدب، خاصة إذا لم يبتذل، وهل يبتذل إلا بالمديح .

وَلَوْلاَ الشِّعْرُ بِالعُلَمَاءِ يُزْرِي لَكُنْتُ اليَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَبِيدِ

وأما هو في ذاته، فما من فاضل ولا عالم ولا إمام إلا قال الشعر، أو استشهد به، أو سمعه، فاستحسنه .

ثم راح الشَّاعر بعد ذلك ينعى أهل زمانه، يخبر أن أهل الفضل والمروءة ماتوا وقَضوا، وهذه النظرة التشاؤميةُ غالبةٌ على أكثر الناس على سبيل المبالغة، وإلا فالفضل باقٍ وإن نقص، وأهله باقون وإن نقصوا .. والمُقرِف: لئيم الأصل الدنيء والمتكئ على أصله الذي يفخر بفضل آبائه وأجداده، ولا يقتفي أثرهم .

إِنَّ الفَتَى مَنْ يَقُولُ هَا أَنَذَا لَيْسَ الفَتَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي

٣٠- أَنَـــا لاَ أَخْتَـــارُ تَقْبِيـــلَ يَـــدٍ

قَطْعُهَـــا أَجْمَـــلُ مِـــنْ تِلْـــكَ القُبَـــلْ

٣١- إِنْ جَزَتْنِي عَنْ مَدِيحِي صِـرْتُ فِـي

رِقِّهَـــا أَوْلاَ فَيَكْفِينِـــي الخَجَـــلْ

اللغة:

رِقِّهَا: بكسر الراء: ملكها، وبالفتح: الورق، وبالضم: الإوزّ.

لَعَلّ: كلمة تَرَجٍّ أو توقُّعٍ أو إشفاقٍ.

الشرح:

استطرد الشاعر وجرّه السياق إلى الحديث عن نفسه، كأنه يصوّر ما يفعله غيره من الشعراء والمادحين، وهي وصية قدمها في قالب جديد، وللنصح قوالب شتى، وهذا من أبرعها وأبدعها، وهو أن يمثل المتكلم نفسه بمنزلة المنصوح، فيجري الكلام على لسانه كأنه قد قبل النصح وعمل به.

يقول: أنا لا أختار ما يختاره كثير من الناس من التزلف والمدح لمن لا خير فيه بتقبيل يده، والخنوع له، فربما كان قطعُ تلك اليدِ الآثمة التي تتناول المعصية خيرًا من تقبيلها، وهي إن جزَتني عن

مدحي وشعري، بِعتُ كرامتي وذمتي، وصِرتُ في رق الممدوح؛ لأن من أمدحه لدنيا أصيبها هو أول مَن يعلم مطلبي، ويتهمني في صدق نيتي، ويوقن أنه لولا النوال والعطاء لما مدحت بشيء، وإلا فيكفيني الخجل وضياع ماء الوجه وثوب المذلَّة، والجمع بين خسارتين، ولا يزال المرء كبيرًا حتى يُحَقِّرَ نفسَه بنفسه .

والبيت الذي بعده يحكي حالَ كثيرٍ من الناس في العطاء، وهو حال من يُعطي بعد مماطلةٍ ومواعدةٍ يستنفذ بها كرامةَ الآخذ التي لا يعدل ثمنَها كنوزُ الدنيا وقناطيرُها المقنطرة، وهذه خِصلة ذميمة تزرعُ في الناس اللُّؤمَ، وتُعَلِّم السائلين المهانَةَ، ولن ينقلب السائل شاكرًا أبدًا، ومن الناس من يفعل ذلك مع الفقراءِ والسائلين في مال الله الذي لا يملكُ منه شيئًا، وهو الزكاة التي فرضها الله على عباده ..

فيا أيها المُعطي إما أن تُعطي بلا إذلال ولا إهانة، وإما أن تقول قولاً ميسورًا، فهذا هو أدب الشرع .

وإن الناس لا يغيظهم منك كثرة مالك وعلوّ جاهك، ورفعة منصبك، إلا إذا ترفَّعت عنهم، وقصَّرتَ في الإحسان إليهم، وأعرضتَ عنهم إعراضَ المُحتَقِر .. وإنك لمُتَّهم بالاستكبار عندهم حتى تكشف لهم عن خلاف ما يظنون .

(أما استرقاق الأحرار وامتهان النُّبلاء، واستعباد الرجال، فهذا دليل على خِسّة الطبع، ورذالة النفس، وسقوط الهمة، وإن من

أعظم سجايا الكرام رحابة الخاطر، وسخاء الكَف بلا مَنّ ولا أذى)[1] .

والاستغناء بالله أوفى عمل، والتوكل عليه أزكى أمل، وكما قيل: سَائلُ اللئيم يرجع ودمعه سائل .

لاَ تَسْأَلَنَّ بَنِيَّ آدَمَ حَاجَةً

وَسَلِ الَّذي أَبْوابُهُ لاَ تُحْجَبُ

اللَّه يغضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ

وَتَرَى ابْنَ آدَمَ حِين يُسْأَلُ يَغضبُ

ثم قال:

٣٢- أَعْذَبُ الأَلْفَاظِ قَوْلِي لَكَ خُذْ

وَأَمَرُّ اللَّفْظِ نُطْقِي بِلَعَلْ

هذا البيت مما جرى على الألسنة، وسار مسار الأمثال وقصد المصنف منه الإشارة إلى حُسن درجات التعامل مع من سأل أو التمس حاجة تقضيها له، وهو إنجازه والإيفاء بها عند طلبها، أو الوعد بتحقيقها بعبارة صادقة تنبئ عن اقتدار ونجدة .. وأمَرّ ألفاظ

(١) حينما بلغتُ هذا الموضع طلب مني - وهو بمنزلي صاحبنا الدكتور: عائض القرني - مناولته، فقرأ ما قبله، ثم كتب بأسلوبه الشائق الرائق مابين القوسين .

الوعود قول الإنسان لصاحب الحاجة: لعلي أفعل، أو لعلّي أتـذكر، أو أستطيع ونحو ذلك من العبارات المحيِّرة .. وقد يضـطرّ الإنسـان إلى ذلك لأغراض كثيرة لا تخفى، منها: الأخذ بالحيطة .

٣٣- مُلْـكُ كِسْـرَى عَنْـهُ تُغْنِـي كِسـرَةٌ

وَعَـــنِ البحْـــرِ اجْتِـــزَاءٌ بِالوَشَـــلْ

٣٤- اِعْتَبِـرْ ﴿ نَحْـنُ قَسَـمْنَا بَيْـنَهُم ﴾[1]

تَلْقَـــهُ حَقًّـــا، وَبِـــالحَقِّ نَـــزَلْ

٣٥- لَيْسَ مَـا يَحْـوِي الفَتَـى مِـنْ عَزْمِـهِ

لاَ، وَلاَ مَـــا فَـــاتَ يَوْمًـــا بِالكَسَـــلْ

اللغة:

كِسْرَى: ملك الفُرس، يُلقب به كل من ملكهـم، وملـوك مصـر: الفراعنة، واليمن: التَّبابعةُ والأقيالُ، والرُّومُ: القَياصرة .

كِسْرَةٌ: بكسر الكاف: قطعة الخبز .

اجْتِزَاءُ: اكتفاء .

الوَشَلْ: المطر الخفيف .

---

(١) سورة الزخرف: ٣٢ .

عَزْمِه: مُرادُه المصمَّم عليه .

الشرح:

يُزَهِّد في الدنيا، ويحث على القناعة، وترك الطمع في هذه الأبيات الرائقة الممتعة، وألفاظ الجناس، وجمل الاقتباس، فالعِزّ كله في السعادة وراحة البال، والسعادة كلُّها في التقوى والقناعة، وقد تكون الدنيا في يدك، وفي قلبك مثلُ ما تملك عناءً وهَمّا وغَمّا، فلا المال يصنع السعادة وحده، ولا الجاه، إنما السعادة في الرضى بالقليل، والخوف من الجليل. وقد سأل أحد الخلفاء يومًا وزراءه ومن حوله من الحاشية: من أسعد الناس؟ فقالوا: أنت يا أمير المؤمنين، قال: أسعد الناس رجل له زوجة يحبها وتحبه، آمنَين لا نعرفه ولا يعرفنا. ولو خير أغنى الناس في الدنيا بين ما يملك وجرعة ماء، لاختار ما يسدّ رمقه مقابل كنوزه، ومثل ذلك انحباس فضلته، ولهذا قال ابن الوردي:

مُلْكُ كِسْرَى عَنْه تُغْنِي كِسْرَةٌ .....

وكما قيل:

الجُوعُ يُطْرَدُ بِالرَّغِيفِ اليَابسِ

فَعَلاَمَ تَكْثُرُ حَسْرَتِي وَوَسَاوِسِي؟

ومعنى بيت ابنِ الوردي: أن القليل يكفي عن الكثير، وما قلّ كان أحلى، وفي المطر الخفيف ما يغني عن البحر المواج والماء الثجاج، وربما كان في كثرته الهلاك والدمار.

ومن تأمل في أمر الرزق علم أنه لا يُكتسب بالدهاء ولا بالحيل، كما قال الزمخشري، وقيل: ابن الرَّاوَنْدي، وقيل: غيرهما:

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبُهُ

هَذَا الَّذِي تَرَكَ الأَوْهَامَ حَائِرَةً

وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقَا

وَصَيَّرَ العَالِمَ النِّحْرِيرَ زِنْدِيقَا

فأَمْر الرزق مفروغ منه، ألم تر إلى قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾، أخبر عن الرزق والخلق بصيغة الماضي؛ لأنه فُرغ منهما، وأخبر عن الإماتة والإحياء بالمضارع؛ لأنهما مستقبلان.

والله يقول: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾. ومن تأمل ذلك في واقع الناس وجده حقًا لا مرية فيه، بل لو تأمله في نفسه وأهله لأدرك ذلك بلا عناء، ولعَلِم أن رزقَه أعلم بصاحبه منه بِه.

وليس كلُّ ما يحويه المرء ويجمعه من مال، يَرجع إلى قوة حِيلتِه، وحِدة ذكائه، ولا كلُّ مافاتَه يفوته بالكسَل والفُتور، فكم من قعيد يُرزق في بيته ما لا يُرزَقُه ساعٍ كادحٍ طولَ يومه، غير أننا أُمرنا جميعًا بأن نسعى ونعمل، فإن عملك ليس لك وحدك، بل هو عائد عليك وعلى غيرِك، أو على غَيرِك دونك، وبهذا تُرْزَقُ ولو بعد حين، ومن أجل ذلك يصل رزقك إليك، وربّما رزق بعض وَلدِكَ بسببك وأنت لا تشعر، وكل ذلك مع الاعتماد على الخالق عزّ وجلّ، ولهذا قيل: ترك الأسباب سَفَهٌ، والاعتماد عليها نوع من الشرك، والواجب العمل بالأسباب، والاعتماد على الرزاق الوهاب.

٣٦- اِطْرَحِ الدُّنْيا فَمِنْ عَادَاتِها

تَخْفِضُ العَالِي وتُعْلِي مَنْ سَفَلْ

٣٧- عِيْشَةُ الزَّاهِدِ فِي تَحْصِيلِها

عِيْشَةُ الجَاهِدِ، بَلْ هَذَا أَذَلّ[1]

٣٨- كَمْ جَهُولٍ وَهُوَ مُثْرٍ مُكْثِرٌ

وَحَكِيمٍ مَاتَ مِنْهَا بِالعِلَلْ

اللغة:

الجَاهِد: من الجَهد، وهو المشقّة، بفتح الجيم، ويضم.

مُثْرٍ: صاحب ثراء.

(١) في نسخة: أقل.

الشرح:

الزهد في الدنيا وإخراجها من القلب هو الطريق المختصر للحياة الطيبة، وسعادة النفس، ودنيا كل إنسان هي عمره وما يتعلق به، وأما حياة من سواه، فدنيا غيره، والأعمار قصيرة، وإذا كانت دنياك هي عمرك، فهي قصيرة أيضًا، وماهي بالنسبة للآخرة إلا كامرئ أراد أن يسافر إلى مكان يستقر فيه هو وأهله وولده، وفي طريقه عرج على مكان؛ ليتزود منه ساعة، ثم يمضي إلى مستقرِّه، فهل من العقل في شيء إذا أمر -قبل رحيله- أن يجهَّز له في ذلك المكان الذي عرض له الاستراحُ فيه ساعةً من دهره قصرٌ وفناءٌ وحديقةٌ غنّاء، ويحوطها بالخدم والخول، ويترك المكان الذي ينوي الاستقرار فيه آلاف أضعاف تلك المدة الوجيزة خرابًا يبابًا .. ؟ ذلك هو الحمق بعينه، فهل أكثر الناس جاهلون حمقى؟ نعم، هم كذلك. قال الله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧]، ومن عادة الدنيا أنها ترفع من لا يستحق الرفعة، وتخفض من يستحقها.

عَتَبْتُ عَلَى الدُّنْيا بِتَقْدِيم جَاهِلٍ

وَتَأْخِيرِ ذِي عِلمٍ، فَقَالَتْ: خُذِ العُذْرَا

بَنُو الجَهْلَ أَبْنَائِي لِذَاكَ رَفَعْتُهُم

وَأَهْلُ التُّقَى أَبْنَاءُ ضَرَّتِيَ الأُخْرَى

وحياة الزاهد في الدنيا المطَّرح لها كحياة من أتعب نفسه في تحصيلها .. الكلُّ سواء، ولن يأخذ كلُّ أحدٍ إلا ماكُتبَ له .

وَالسَّعْيُ فِي الرِّزْقِ وَالأَرْزَاقُ قَدْ قُسِمَتْ

بَغْـــيٌ أَلاَ إِنَّ بَغْـــيَ المَـــرْءِ يَصْـــرَعُهُ

يريد: السعي فوق العادة.

وعن شقيق الزاهد: اختار الفقراء ثلاثة أشياء: راحةَ النفس، وفراغَ القلب، وخفةَ الحساب. واختار الأغنياء: تعبَ النفس، وشغلَ القلب، وشدةَ الحساب.

وكم من جهول أحمق يأتيه المال مدرارًا ومكثارًا، لم يصل إليه بذكاء ولا عقل، وكم من عليم صاحب عقل، لم ينتفع بعقله في شيء من تحصيل الرزق، وربما أدّاه عقله إلى الخسارة والافتقار، ثم الهمّ والسَّقم، وكان ذلك سببَ حتفِه وتَلفه.

٣٩- كَمْ شُجَاعٍ لَمْ يَنْلْ فِيهَا المُنَى

وَجَبَـــانٍ نَـــالَ غَايَـــاتِ الأَمَـــلْ

٤٠- فَـــاتْرُكِ الحِيلَـــةَ فِيهَـــا وَاتَّئِـــدْ

إِنَّمَـــا الحِيلَـــةُ فِـــي تَـــرْكِ الحِيَـــلْ

اللغة:

المُنَى: جمع مُنية، وهي ما يُتمنى، والاتئاد: الترفّق .

يقول: كم شجاع في هذه الحياة لم يتحقق لـه مطلوبـه ولا وصـل إلى مبتغاه، ولم ينتفع بشجاعته في بلوغ الأماني .. هـذا أبـو الطيّـب المتَنبِّـي الـذي فـاخر بشـجاعته الـدنيا كـان يؤمّـل أن يظفـر بضـيعَة أو منصب، واحتال لذلك بشِعره وشجاعته، فلم يحصل على شـيء مما تمنى وأمّل، وكان غاية أمره أن قتله شعره وشجاعته وفخاره .

وكم من الجُبناء الخُوَّار من بلغ مراده وأوتي سـؤلَه، ونـال غاياتـه وأمنياته، لم يوصله إليها شجاعة ولا إقدام ولا قوة حيلـة، وأسـباب هذا وذاك كثيرة يجمعها اختلال الموازين (العدل والحب والسَّلام)، يقول ابن دُرَيد ينعى مثل هذا في زمانه:

أَرَى زَمَنًـا نَوْكَـاهُ أَسْـعَدُ أَهْلِـهُ وَلَكِنَّمَـا يَشْـقَى بِـهِ كُـلُّ عَاقـل

مَشَتْ رِجْلُهُ أَعْلاَهُ والرَّأْسُ تَحْتَـهُ فَكَبَّ الأَعَـالِي بِارْتِفَـاعِ الأَسَـافِلِ

فإذا كانت الأماني لا تُنـال بـدقيق الحيـل ومهـارة الموهبـة وقـوة الحذق وجليل الخصال، فالحيلة أن تترك الحيلة في إتعاب نفسك في الطمع والأماني الكبيرة، وتلزم الرضا والقناعة والتؤدة والرفق .

وفرق كبير بين الطمع والطُّموح والاستشراف وعلوّ الهمّة .

والمصنِّف يريد الإرشاد إلى ترك الطمع وبيان أن الـدنيا لا تعـدل بين أبنائها .

ثم قال:

٤١- أَيُّ كَـفٍّ لَـمْ تُفِـد مِمَّـا تُفَـدْ

فَرَمَاهَـا اللَّـهُ مِنْهَـا بِالشَّـلَلْ

اللغة:

تُفِدْ: تُعطي

مما تُفَدْ: بضم التاء، وفتح الفاء، والأصل: تفاد، ولكنه عامله معاملة المجزوم، الذي تحذف ألفه للالتقاء الساكنين؛ لأن الدال هنا ساكنة.

الشرح:

يدعو على البخلاء الذين يأخذونَ ولا يعطونَ، وينتفعونَ ولا ينفعونَ، يقبضون أيديهم .. يدعو عليهم بالهلاك وتلفِ أيديهم وأرجلِهم .. والبخلُ داءٌ عزيز الدَّواء، تأتي مرتبته بعد الحُمْق، وللبخل من الحُمْق نصيب، فهو من الأمراض المزمنة القديمة، التي لم يكتشف لها الطب الحديث علاجًا.

ومن الناس من يخلط بين البخل وترشيد المال وإنفاقه في موضعه باعتدال.

٤٢- لاَ تَقُــلْ أَصْــلِي وَفَصْــلِي أَبَــدًا

إِنَّمــا أَصْــلُ الفَتَــى مَــا قَــدْ حَصَــلْ

٤٣- قَــدْ يَسُــودُ المَــرْءُ مِــنْ غَيْــرِ أَبٍ

وَبِحُسْــنِ السَّــبْك قَــدْ يُنْفَــى الزَّغَــلْ

٤٤- وكَــذَا الــوَرْدُ مِــنَ الشَّــوْكِ وَمَــا

يَنْبُــتُ النَّــرْجِسُ إِلاَ مِــنْ بَصَــلْ

٤٥- مَــعَ أَنِّــي أَحْمَــدُ اللَّــهَ عَلَــى

نَسَــبِي إِذْ بِــأَبِي بَكْــرِ اتَّصَــلْ

اللغة:

أَصْلِي: آبائي .

وَفَصْلِي: ذريتي .

يَسُودُ: يعلو شأنه ويشرف .

السَّبْك: سَبَكَ الذَّهبَ: أذابه ليصنعه على مايريد .

الزَّغَل: الغِشّ، وهذه اللفظة من المستدركات على القاموس .

النَّرْجِس: على وزن مَجلس وسِمسِم، زهر له رائحة زكية .

الشرح:

يقول: لا تفتخر بنسب ولا ولد، فهذا فعل العاجزين، إنما أصلك وفصلك ما حصل منك من مشاركتك لبني جنسك، ونفعك لنفسك ومجتمعك، وما أنت فيه من خصال حميدة، وعمل ناجح، وكن كما قال الأول:

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامَا وَعَلَّمَتْهُ الكَرَّ وَالإِقْدَامَا

وفي يوم القيامة ﴿لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

ولو كان المرءُ يسود بآبائه، لساد الناس كلُّهم؛ لأنهم كلهم ينتهون إلى من هو عالي الرتبة، رفيع المنزلة في الأصل الأصيل، ولما وجدنا سادةً أباة لم تسد آباؤهم، بل كانوا في منزلة منحطة، ومنهم من لا يُعرف أبوه، وأكثر العلماء في القرن الثاني الهجري من الموالي، كالحسن، وقتادة، وعطاء، ومكحول، وسيبويه، وليس في القرّاء السبعة ورواتهم من هو صريح النسب إلا أبا عمرو بن العلاء، وعبدالله بن عامر الدمشقي.

وإلى ذلك يشير الشّاطبيُّ بقوله:

أَبُو عَمْرِهِمْ واليَحْصُبِيُّ ابْنُ عَامِرٍ صَرِيْحٌ وَبَاقِيهِمْ أَحَاطَ بِهِ الوَلاَ

وقوله: وَبِحُسْنِ السَّبْك، هذا على طريقة التشبيه الضِّمني الذي يشتمل على دليل يؤكد الدعوى؛ ليقيس السامع شيئًا بشيءٍ لجامع بينهما، والقياس تشبيه. والدعوى هنا: سيادة الابن بدون أب شريف، والأصل في تخليص الذهب من الشوائب أنه حينما يكون مختلطًا بمعادن أخرى لتقوى صلابته يُفتَنُ ويُختَبَر بإحراقه، فيحترق جميع الزَّغَل والمواد المتعلقة به حتى لا يبقى إلا الذهب الخالص، ليكون عيار أربعة وعشرين، كما هو متعارف عليه اليوم.

وكذلك زَهر الورد، أغصانه وسيقانه مليئة بالشوك، وزهر النرجس الزكي الرائحة، يقال: في شمه غذاء للرُّوح والعقل ويقطع الجنونَ، يبزغ من بين أوراق البصل، والفرق بينهما في الرائحة هو الفرق بين المتضادات، وهذا يفيد أن الأقيسة لا تطّرد في مثل هذا، ولا يلزم من شرف الأصل شرف الفرع، ولا من دناءة الأصل دناءة الفرع.

ثم إن زكاء النسب إذا اجتمع معه شرف الفرع، وإثبات الذات، زاده فضلاً على فضل، وشرفُ الأصل له في الغالب أثر على الفرع.

وحتى لا يُظَنَّ أن الشاعرَ حينما نهى عن الفخر بالوالد وضيعُ النسب أو مجهولُه، لوّح إلى إزالة الوهم بالبيت الأخير، الذي يفيد انتسابه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما بيناه في ترجمته في المقدمة.

٤٦- قِيمَـــةُ الإِنْسَـــانِ مَـــا يُحْسِـــنُهُ

أَكْثَـــرَ الإِنْسَـــانُ مِنْـــهُ أَوْ أَقَـــلْ

٤٧- اُكْـــتُمِ الأَمْـــرَيْنِ فَقْـــرًا وَغِنًـــى

وَاكْسَـبِ الفَلْـسَ وَحَاسِـبْ مَـنْ بَطَـلْ

٤٨- وَادَّرِعْ جِـــدًا وكَـــدًّا وَاجْتَنِـــبْ

صُـــحْبَةَ الحَمْقَـــى وَأَرْبَـــابَ الخَلَـــلْ

اللغة:

الفَلْس: بفتح الفاء، جمعه أَفلُس وفُلُوس، ومعناه معروف .

بطل: خسر .

اِدَّرِعْ: فعلُ أمر من: ادَّرَعَ، إذا لبس الدِّرْع .

جِدًّا: اجْتهادًا، الاسم بالكسر، والمصدر بالفتح، ويأتي مفتوحًا بمعنى العَظَمة، والحَظّ، ووالد الأب .

الشرح:

فائدة النظم تقييد المعاني بكلام أدعى للحفظ، وأصل الكلام الذي نظم في البيت الأول مروي عن علي بن أبي طالب: «قيمة المرء

ما يُحسِنه»، ولا يكون الإنسان إنسانًا إلا بصفاته وشمائله، فإذا كان صورة لا يميزها شيء في الخارج فهو جثة لا قيمة لها، فكيف إذا زاد فسادًا في الأرض وشراسة في الخلق، وكم في الأرض من أُناس لا قيمة لهم ولا نفع، عالة على غيرهم، ينتفعون من العاملين في الأرض ولاينفعون، الخباز يخبز لهم، والصانع يصنع لهم، والبناء يبني لهم، والكناس يكنس لهم، وهم لا يشاركون المجتمع بإصلاح ولا عمل ولا علم ولا فكر ولا كلام مفيد، ولا شيء .. هؤلاء، لا يحسنون صنعًا، ولا قيمة لمن لا يُحسن، فدع الملل وابدأ العمل، ولا تعجز، ولا تيأس، وفي الحكمة: إذا لم يكن ما تريد، فأرِدْ ما يكون .

وَلاَتَكُنْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى وَاصْطَبِرْ لِكَدِّه وَلِلْمَلاَلِ طَلِّقِ

وفي البيت التالي يحث الشاعر على الكتمان في حالَيْ الفقر والغنى، أما الفقرُ فدفعًا لشماتة الأعداء، وصبرًا على البلاء، وأما الغِنى، فدرءاً للحاسدين، وتربيةً للنفس، وكسرًا لدواعي الزهو والعجب والكبرياء .. والكتمان أعون على قضاء الحوائج، وروي في الحديث المتفق على صحة معناه: «اِسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِالكِتْمَانِ».

وكل من الفقراء والأغنياء بمنزلة على حسب صبرهم وشكرهم، وجاء في فضل الجميع نصوص كثيرة.

واختلف العلماءُ: أيُّما أفضل الغنيُّ الشاكرُ، أم الفقيرُ الصابر؟ فقيل: الشاكر، وقيل: الصابر، وقيل: أفضلُهما أتقاهما، وهذا ليس بسديد؛ لأنه إذا كان الفضل بذلك، كان التفضيل بالتقوى، لابذات الغنى مع الشكر، والفقر مع الصبر، وهو خروج عن محل الخلاف، بل هذا الجوابُ يَصلُحُ في كلِّ متفاضلَيْن اختُلف فيهما .

وقوله: وَاكْسِبِ الفَلْسَ. حَثٌّ على العمل والجِد لإعزاز النفس، ومحاسبة أهل البطالة التاركين للعمل وهم قادرون، وباعث الجد هو الإرادة والعزم، وفي الحكمة: حيثما وُجدت الإرادة، وُجد الطريق.

ثم نَفَذَ من ذلك إلى الحثِّ على التدرُّع بالجد والكد والاجتهاد والعمل، وأول عمل يراد هو العمل للآخرة، ثم العمل لبناء الحياة، وإعمار الأرض، والعمل عزّ للنفس، وراحة للضمير، وبناء للجسم، وإعفاف للعيال .

ومما يُعين على العمل للأولى والآخرة: الابتعاد عن مصاحبة الحَمقى، والحُمْق داءٌ ليس له دواء، ولا ينجع فيه محاولة المَهَرة من الأطباء والحكماء .

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ إِلاَّ الحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا

ويُعرف الأحمق من كلامه وتصرفاته، فإنه يضر من حيث يريد النفع، وهو لا يدري، وكم من أرواح وأموال وعلاقات ومكاسب معنوية ضاعت جرَّاء تصرف أحمق .

وذَكروا من علامات الأحمق: سرعةَ الجواب، وكثـرةَ الالتفـات، والعجلةَ في الحكم، والإفـراطَ في الضَّـحِك، ومخالطـةَ الأشـرار، والوقيعةَ في الأخيار.

وهناك علاماتٌ شكلية ذُكرت في كتب الأدب والفِراسة، غيرَ أنها لا تَنضبطُ .

وفي رءوس كثير من العباقرة زوايا حُمـق لا تَـبرز غوائلـها إلا في المضايق والنوائب، وساعات الغضب .

والحمقُ يقودُ إلى كلِّ طبعٍ خَسيس، وهـو درجـات، وكُـلُّ كَـافرٍ أحمقُ، وللعصاة نصيبٌ بقدر ذلك .

وأرباب الخَلل هم أصحابُ الفسادِ والإفسادِ .

وللجليس الصالح أثرٌ على مَن يجالس، والصاحب ساحبٌ .

..... وكُـلُّ قَـرِينٍ بِالمُقَـارَنِ يَقْتَـدِي

ولقد أحسَنَ من قال:

عَلَيْكَ بِأَرْبَابِ الصُّدُورِ فَمَن غَـدَا
مُضَافًا لأَرْبَـابِ الصُّـدُورِ تَصَـدَّرَا
فَرَفْعُ (أَبُو مَنْ) ثُمَّ خَفْضُ (مُزَمَّلٍ)
يُـبِينُ مَقَـالِي مُغْرِيًـا وَمُحَـذِّرَا

ثم قال رحمه الله:

٤٩- بَـــيْنَ تَبْـــذِيرٍ وَبُخْـــلٍ رُتْبَـــةٌ

فَكِـــــلا هَـــــذَينِ إِنْ دَامَ قَتَـــــلْ

٥٠- لاَ تَخُضْ فِي سَبِّ سَـادَاتٍ مَضَـوْا

إِنَّهُـــمْ لَيْسُـــوا بِأَهْـــلٍ للزَّلَـــلْ

٥١- وَتَغَافَـــلْ عَـــنْ أُمُـــورٍ إِنَّـــهُ

لَـــمْ يَفُـــزْ بِالحَمْـــدِ إِلاَّ مَـــنْ غَفَـــلْ

الشرح:

التبذير: مأخوذ من البذر؛ لأنه حبوبٌ متفرقةٌ، وكـذلك التبـذيرُ: تفريقٌ وتبديدٌ، بين منزلة التبذير والبخل منزلةٌ ثالثةٌ هي منزلة القَـوام والاعتدال .. ، ومن صفات عباد الرحمن: التوسُّطُ في الإنفـاق بـين الإسراف والإقتـار ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء]، أي: فتقعد ملومًا يلومـك الناس إذا بخلتَ بمالك وقبضت يـدك، ومحسـورًا، أي: في حسـرة وندامة إذا بددت مالك، ولم تبق لنفسك ولمن تعـول شـيئًا .. وهـو

من أساليب اللف والنشر في البلاغة، وهذا معنى قوله: وكِلاَ هَـذَيْنِ إِنْ دَامَ قَتَلْ .

وَالإِسْرَافُ: جهلٌ بمقادير الحقوق، والبخلُ شعبةٌ من الجُبن، ومَجْراهُ يلتقي مَعَ الحسد؛ لأنّ كُلاً من الحاسد والبخيل يريد مَنعَ الخير عن غيره، وهو دَرَجَاتٌ، كما أن الإسرافَ درجاتٌ، والاعتدالُ في الإنفاقِ نِسْبِيٌّ.

وقاعدة الاقتصاد العالمي تقولُ لصاحبِ الدَّخل المحدود: يجب أن يكون صَرْفُكَ أقلَّ من دخلِك .

والبخل مذموم عقلاً وشرعًا في جميع الأحوال، وليس كذلك الإسرافُ .

ثم ينتقل الشاعرُ إلى وَصيةٍ أخرى، وهي حفظُ اللسان من الخوض في أعراض من سبق من أهل العلم والفضل، كالصحابة والتابعين وأتباعهم بإحسان، فهذا مما يؤذي به المرء نفسه، والجميع أفضى إلى ماقدّم، وألقى برحله، ولقي ربَّه .

وقوله: إِنَّهُمْ لَيْسُوا بَأَهْلٍ لِلزَّلَلْ. يحتمل معنيين:

أحدهما: ليسوا أهلاً لأن يقعوا في الزَّلل .

الثاني: ليسوا أهلاً أن يزلَّ المرءُ فِيهم بالكلامِ عليهم .

أمـا الأَوَّلُ - والظَّـاهر أنـه مـرادُ المصـنِّف - فخطـأٌ لا تَحْتمِلـه المبالغةُ، فالجميع معرَّض للزَّلَل، وكلُّ ابنِ آدم خطَّـاءٌ، وأمـا علـى المعنى الثاني فالكلامُ فيهم هو نوعٌ من البُهتـان والافتـراء أو الغيبـة، وكثيرٌ من العامَّة يخلط في الفهم، فإذا أنكر عليه في قولـه عـن أحـدٍ من الناسِ وذمِّه، سارع بالإجابة: بأن ماقاله حقٌّ، وهل الغِيبة إلا قول الحق في أخيك، والغيبة مُحَرَّمة، فإذا كانت في فاضل مَيت، زادت حُرمتها، واستُثني من ذلك حالات، جمعها قول بعضهم:

لَـيْسَ الكَـلاَمُ بِغِيبَـةٍ فِـي سِـتَّةٍ ... مُـتَظَلِّمٍ وَمُعَـرِّفٍ وَمُحَـذِّرِ

وَلِمُظْهِرٍ فِسْقًا وَمُسْـتَفْتٍ وَمَـنْ ... طَلَبَ الإِعَانَـةَ فِـي إِزَلَـةِ مُنْكَـرِ

ثم خَلَص الناظمُ بعد ذلك إلى الحثِّ على صفةٍ محمـودة، وهـي التَّغَافُل في الموضع الذي يحسن فيه ذلك .

وذكـر ابـن حـزم في كتـاب «مـداواة النفـوس» أن مـن عجائـب الأخلاق أن الغفلةَ مذمومةٌ، واسـتعمالَها محمـودٌ، وفي مثـل ذلـك يقول الشاعر:

لَـيْسَ الغَبِـيُّ بِسَـيِّدٍ فِـي قَوْمِـهِ ... لَكِـنَّ سَـيِّدَ قَوْمِـهِ المُتَغَـابِي

وعن بعض السّلف: تسعة أعشار حسن الخُلق في التَّغافل.

ولمثل هذا التخلق مواضع، من أحسنها: التغاضي عمـن يعـرّض بك، فتُعرِضُ عنهُ إعراضَ من لم يَفْهم مقصودَه، ومثله التغافـل عـن سَقَطَات الأهلِ والولَدِ والقريبِ، مع التَّهويل من فعل ذلك في وقـت

آخر، فإنَّك إن أبديتَ لهم صفحةَ اطّلاعِك، فإما أن تُعاقب عليه عقابًا أشد من الذَّنب، وهو ظُلم، وإما أن لا يكون موقفُك كذلك، فيُفضي ذلك إلى ضعف الوازع، وفي كلا الحالين يولّد ذلك تجاوز السَّقطة إلى أكبر منها؛ لأنهم عرفوا غاية ماعندك .

٥٢- لَيْسَ يَخْلُو المَرْءُ مِن ضِدٍّ وَإِنْ

حَاوَلَ العُزْلَةَ فِي رَأْسِ الجَبَلْ

٥٣- مِلْ عَنِ النَّمَّامِ وَاهْجُرْهُ فَمَا

بَلَّغَ المَكْرُوهَ إِلاَّ مَنْ نَقَلْ

٥٤- دَارِ جَارَ السُّوءِ بِالصَّبْرِ وَإِنْ

لَمْ تَجِدْ صَبْرًا فَمَا أَحْلَى النُّقَلْ

اللغة:

العُزلة: العيشُ بمعزل عن الناس .

مِلْ: فعل أمرٍ من: مالَ يميل، والمراد: اجتنبه .

النَّمَّام: مِن: نَمَّ، وهو من يَسعى بالكلام للوقيعة بين الناس .

دارِ: فعل أمر من: دَارى يُداري، والمداراةُ: الملاينةُ .

النُّقَل: جمع نُقلة، والمرادُ: الانتقال .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشرح:

ليس أحد يخلو من حاسدٍ أو حاقد أو عدو كاشح إلا أن يكون سليبَ النعمة ليست له أيُّ ميزة على أحد من خلق اللَّه، وهذا هو البائسُ الفقير، المُبتلَى في دنياه، ومع ذلك لن يخلو من شامتٍ ومعيِّرٍ، ذلك هو شأن الناس، ومَن عَرفهم أَحسَن التعَايش المناسِب بما تُرشِد إليه الدِّيانةُ ويريحُ نفسه، وأما طلبُ رضا الناس جُملة، فمحالٌ، وتكليف فوق الطاقة، فإننا لا نرضى عن أنفسنا في كثير من الأحيان. ولا يدرك رضا الناس حتى من حاول العُزلة في رأس الجبَل .. سوف يجدُ من يقول عنه: مجنونٌ، أو مُعَقَّد، أو انطوائي، وكذلكَ يفعلونَ. ولا بد في الحياة من غَصَص، وقد تقدم الكلام عن العزلة باستفاضة في أول الكتاب .

لاَ تَرْجُوَنْ صَفْوًا بِغَيْرِ كَدَرٍ فَذَا -لَعَمْرُ اللَّهِ- لَمْ يَتَّفِقِ

ولا يزال ابن الوردي يرسل وصاياه ونصحه أمرًا وزجرًا، فكان من غرره ودُرره قوله: مِلْ عِنِ النَّمَّام . .. إلخ .

أي: اجتنب النمام، ومِل عنه كلَّ الميل، ولا تخالطه، فهو شر الناس وأخسهم، قال عز وجل: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [القلم]، وثبت في الصحيح: «لا يدخل الجنة نمَّام»، وفي لفظ: قَتَّات، وهما بمعنى، والحديث يشير إلى أن النميمة من الكبائر، فإن كان من الموحدين فالحديث محمول على أحد أمرين:

إما أن يكون مبالغة في الزَّجر، وهو أسلوبٌ تربوي لا يقلِّلُ من شأنِ المَعصية.

وإما أن يكون المراد: لا يدخلها ابتداءً حتى يُعذَّب، أو لا يدخلها مع من يدخلها أوّلاً. وقيل: المراد: من يستحلُّها، وهو ضَعيفٌ.

والتحذيرُ من النمَّام بتركه في جميعِ الأحوالِ، سواءٌ نَقَل عنك أم عن غيركِ لك، ومن نَمَّ لك نَمَّ عنك، فلا تثِق بمن هذه صفته، فإنه طَبعَه لا يتجزأ، ولا يستطيعُ صاحبه أن يوجِّهه حيثُ يشاء، والوفاءُ منزوعٌ من النَّمَّام، وهو قصير الصُّحبة، سيءُ المَلَكة، حقيرُ النَّفْس، كثيرُ الحَسَد، ضعيفُ العَقل، فاسد النَّقل.

ومن الحكمة مداراة الناس وملاينتهم، وفرق بينها وبين المداهنة، فالمداراة: بذل الدُّنيا من أجلِ الدُّنيا، أو الدِّين، أو كليهما، والمداهنة: بذل الدِّين من أجلِ الدُّنيا.

والمداراة محمودةٌ لم يزلِ العُقَلاَءُ يستعملونَها، فإن تغرب الإنسان كانت في حقّه أولى، كما قيل: أَرْضِهم في أرضِهم، ودارِهم في دارِهم .. والصبرُ مما يستعانُ به على المداراة، ومن لم يستطع الصَّبر والمداراة، ففي انتقاله فُسحةٌ وإعتاقٌ لنفسه، وراحةٌ لقلبه، والنُّقَل سهلةٌ على من لم يملك منزلاً يسكنُ فيه .. ولكلٍّ من الاستئجارِ والمِلْكِ محاسنُ ومساوئُ ذَكَرتُها في المقامات.

٥٥- جَانِبِ السُّلْطَانَ وَاحْذَرْ بَطْشَهُ

لاَ تُعَانِدْ مَنْ إِذَا قَالَ فَعَلْ

٥٦- لاَ تَلِ الحُكْمَ وَإِنْ هُمْ سَأَلُوا

رَغْبَةً فِيكَ وَخَالِفْ مَنْ عَذَلْ

٥٧- إِنَّ نِصْفَ النَّاسِ أَعْدَاءٌ لِمَنْ

وَلِيَ الأَحْكَامَ، هَذَا إِنْ عَدَلْ

٥٨- فَهُوَ كَالمَحْبُوسِ عَنْ لَذَّاتِهِ

وَكِلاَ كَفَّيْهِ فِي الحَشْرِ تُغَلْ

اللغة:

عَذَلْ: لامَ، ومضارعه بكسر الذال وضمِّها .

تُغَل: مادة (غَ لَ لَ): دالة على ضم وخفاء، وكذلك كلّ كلمة أوّلها غين، والغَلّ وضع القيد في اليد، وفي القرآن: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤].

الشرح:

مجانبة إغضاب السلطان، والحذر من بطشه، ومُلاينته في الخطاب، مما يُدركه العقلاء، لا سيما في الأمر بالمعروف، والتنبيه

على منكر، فإن الغرض النصح وقَبوله، وقد قال الله لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ[أي: لفرعون] قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، وليس في هذه الأمة من هو أفضل من موسى وهارون، ولا يُعرف متجبِّر في الأرض أشد من فرعون، فإذا كان الناصح والمنصوح دون أولئك، -كلّ في مقابله-: فغيرهم أولى بمثل ذلك، ومن يعاند السلطان الذي إذا قال فعل فهو أحمق. والتاريخُ يَحكي لنا ما يملأ الصفحات من ذلك.

وأما من كان همُّه إرضاء الخالق عز وجل، واستعمل ما يوجبه دينه من النصح والإحسان والحكمة والرِّفق، فلا عليه أن لا يَرضى من لا يَرضى، وللشيطان مداخل واسعة في هذا الباب، لا يفطن إليها المرء في تلك الأحوال.

والمتأمل في أحوال الأئمة من العلماء على مرّ التاريخ يلمس السُّكون عند الفتن، والتميز عن غوغاء العامة، بدرء المفاسِدِ الكُبْرى.

والبيت الذي بعده في ولاية الحكم والقَضَاء، يوصي فيه الناظمُ بتركِ تولِّي الحكمِ، ولو سألكَ الناس، وألحُّوا عليكَ، وأبدوا الرَّغبة والحرص فيك، ومخالفة من لامَك منهم على ترك ذلكَ، فإنّ ولاية الأحكام مسئولية عظيمةٌ، وأمانةٌ لا يتحملها ضعفاء الناس ومَهَازيلهم.

وهذه الوصية يتعين تطبيقها على مَن وجد مِن نفسه ضعفًا، وأكثر الناس لا يصلح للقضاء والحكم، وقد يتعين الاستجابة على بعض الناس، والعِبرة في ذلك بحاجة الناس واستعداد المكلَّف.

وممّا يحسن إيراده في هذا المقام أبياتًا قالها الصنعاني يخاطب بها عالِمًا من علماء تلك الديار اليمنية، ولِيَ القضاء على كبر، وكان القضاء آنذاك فتنة، والأبيات كثيرة أجتزئ منها قوله:

ذَبَحْتَ نَفْسَك لَكِنْ لاَ بِسِكِّينَ كَمَا رَوَيْنَاهُ عَنْ طَهَ وَيَاسِين

إلى أن قال:

وَحَيْثُ قَدْ صَرْتَ مَذْبُوحًا فَخُذْ جُمَلاً

في النُّصْحِ مَا بَيْنَ تَنْبِيهٍ وَتَبْيِينِ

ثم يقول مطمئنًا له:

مَا مَاتَ وَاللَّهِ جُوعًا عَالِمٌ أَبَدًا سَلِ التَّوَارِيخَ عَنْهُ فِي الدَّوَاوِينِ

وابنُ الورديِّ – هنا - يصورُ واقعًا في زمانهِ ومجتمعهِ، كان على حال سيئةٍ، وفي قوله: إنَّ نِصْفَ النَّاسِ ... مقالةُ صدق؛ لأن من حكم بين الناس بالعدل، اتخذَه المحكومُ عليهم عدوًّا، ولم يَسْلم من كلامِهم وأذاهم، وذلك أنَّ كل قضية حكمَ فيها حاكم، فلها طرفان: طرف محكوم عليه، وطرف محكوم له، فأما النوع الأول فهو ساخط أبدًا، أصاب القاضي في حكمه أو أخطأ، هذا إن عَدل، فأما إذا لم يَعْدِل، فأكثر الناس أعداؤه.

وقوله: فَهُوَ كَالمَحْبُوس، أي: من حكم في الناس، يُصبح كالإنسان المحبوس الممنوع مما يُؤذَن فيه لكثير من الناس، ويُحرَم من أشياء كثيرة، منها ما يوجبه العُرفُ، ومنها ما يوجِبه المنصبُ،

ومنها ما توجبه المُروءة، وهذه قيود تضايق الحُرّية، وإن كان في ظاهرها عِزٌّ واختصاص، وقد يكون من غوائل المنصب: تركُ المشي في الأسواق، وإجابةُ الدَّعوات ..

والشطر الثاني من البيت: إخبار عن حاله يومَ القيامة إذا لم يعدل، والأحاديث في فضلِ العَدل في الحكم، وتقبيح وذَمِّ الظلم كثيرة.

٥٩- إِنَّ لِلـــنَّقْصِ وَالاسْـــتِثْقَالِ فِـــي

لَفْظَـــةِ القَاضِـــي لَوَعْظًـــا وَمَثَـــلْ

كلمة (القاضي) اسم منقوص، والمنقوص: اسمٌ معربٌ آخرهُ ياءٌ لازمةٌ مكسورة ماقبلها، ويُعرب في حالة الرفع والجرِّ بحركة مقدَّرَة على آخره مَنَع من ظهورها الثِّقل، وهذا هو النَّقْص والاستثقالُ الذي عناهُ الناظمُ، وهو نوعٌ من الأسلوب التَّشْويهيّ، والمُرادُ من ذلك التَّحذير.

والوقفُ على «مَثَلْ» بالسكون على لغة ربيعة، أشرتُ إليه في «ما هَبَّ ودَبَّ»:

وَقْفُ رَبِيْعَةَ بِحَذْفِ الأَلِفِ وَالثُّومُ مُذْهِبٌ لِحَبِّ الكَلَفِ

ثم قال:

٦٠- لاَ تُسَـــاوِي لَـــذَّةُ الحُكْـــمِ بِمَـــا

ذَاقَـــهُ المَـــرْءُ إِذَا المَـــرْءُ انْعَـــزَلْ

أي: لا تساوي لذة الحكم مرارة العزل، حينما يَصْدُر القرار بعزله عن عمله .. هكذا قال المصنِّف، والعاقل لا يكترثُ بعَزْلٍ ولا تركٍ؛ لأنه إما أن يكون محسنًا في عمله، فينتهي إلى خير خَلاصٍ، وإما أن يكون مُسيئًا فهذا على أي شيء يبقى؟ ولِمَ يتمادى؟ وقد سوّد ديوانه.

وكلمة: انعَزلَ، فعل مطاوع، يقال: عزلتُه فانْعَزَلَ، وكَسَرتُه فانْكَسَر .

٦١- فَالوِلايـاتُ - وَإِنْ طَابَـتْ لِمَـنْ

ذَاقَهَـا - فَالسَّـمُّ ذَاكَ فِـي العَسَـلْ

٦٢- نَصَـبُ المَنْصِـبِ أَوْهَـى جَسَـدِي

وَعَنَـائِي عَـنْ مُـدَارَاةِ السَّـفَلْ

اللغة :

السَّم: بفتح السين، وضَمِّها، وكَسْرِها، والأَفْصح: الفَتحُ، والأشهرُ الضَّمُ، وهو المادة القَاتلةَ، كسَمِّ الأفعى والعقربِ وغيرهما مما فيه شَبَه من تلك الخاصّية .

نَصَب: تَعَبٌ وعَنَاءٌ .

أَوْهَى: أَضْعَفَ .

السَّفَل: أراذل الناس، وسفُل في عِلمه: نَزَل .

الشرح:

يقول للولاية والمنصب لَذَّةٌ، طعمُها حُلوٌ، وريحُها طَيِّبٌ، ولكنها بمنزلة العسل الذي وضع فيه السّم الفاتِكُ، يطعمُه الطَّاعِمُ حلوًا شديدَ الحلاوة، ثم لا يلبث أن يقطع أمعاءه، وقد تكون الولايةُ كذلك، ظاهرُها فيه الرَّحمة، وباطنُها من قبله العذاب. وفي الحديث: «نعْمَت المُرضِعة، وبِئست الفَاطِمة»، وكم من أُناس آل بهم الحالُ إلى الهلَكة، فكانوا حديثَ الناس، أمثال أبي مسلم الخُراساني، والوزير ابنَ بقيَّةَ، والأمينِ، والمتوكِّل، والمستعين، وابن المعتزّ . .. ، وغيرهم. وتلكَ حالُ الدُّنيا .

دَارٌ مَتَى ما أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا أَبْكَتْ غَدًا تَبًّا لَهَا مِنْ دَارِ

والناظم يقول عن خِبرة، ويُخبرُ عن تَجْرِبة، فهو يقول: المنصب نصَب، والحُكم حَكَمةٌ، والقَضَاء قَضاءٌ، وأصدقُ النُّصح ماكان عن معرفة وخِبرة، ففيها من إتعابِ الجسد والوَنَى ما فيها، وفيها من المُعَاناة في مُدَارَاة سَقَطة الناس وسَفَلتِهم، والإغضاء عَنهم، والصَّبر عَلى فُضُولهم، مَا صَرَّح به الناظم، وحذَّر منه على طريقة الشَّكْوى مما ذاقه من مَرَارَتها.

٦٣- قَصِّرِ الآمَالَ فِي الدُّنْيَا تَفُزْ

فَدَلِيلُ العَقْلِ تَقْصِيرُ الأَمَلْ

٦٤- إنَّ مَـنْ يَطْلُبُـهُ المَـوْتُ عَلَـى

غِـــرَّةٍ مِنْـــهُ جَـــدِيرٌ بِالوَجَـــلْ

اللغة:

غِرَّة: بكسر الغين: غَفْلة .

جَدِيرٌ: حقيق .

بِالوَجَلْ: بالخوف .

الشرح:

لما كان بعضُ ماتقدَّم التحذيرُ منه سببُه حُبُّ الدُّنيا والتعلقُ بها، أراد أن يعالجَ ذلكَ السببَ؛ ليجتثَّهُ من أصله .

ومن أطالَ أملَه في الدُّنيا، وركن إليها، غَرَّته، فوقع في شِراكها، كما وقع من هو أشد منه قوة وأكثرُ جمعًا، فما أغنى عنه مالُه ولا جَمعُه .

وقصر الأمَل سببٌ لراحة النَّفس، وموجِّهٌ للقلب إلى الآخرة، والناسُ في الأمل درجات:

منهم مَنْ يُؤَمِّل الخُلود، ومنهم مَن يؤمِّل ما لا يَجري عليه الواقع من الأعمار الطويلة التي لم يعمَّرها أحدٌ في زمانه، كما أخبر

الله عـن اليهـود ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقـرة: ٩٦]، هـذا في أعمارهم، وفيما عدا ذلك أصنافٌ شتَّى أيضًا .

وتأميل بني الإنسان فيما لا يؤمَّلُ مِن ضَعْفهم .

ولا يؤاخَذُ الإنسان في أَمله، إنما يُؤاخذ في عَمله، وفي الصـحيح «يَشِيبُ ابنُ آدَمَ، وَيَشِبُّ مَعَه خَصْلَتَانِ: الحِرْصُ، وَطُولُ الأَمَلِ».

والعاقِل مَـن عَـرَف طريقَـه، ولم يتعلـق بخُيـوط الأمـلِ الطويلـةِ المتشابكة .

وهادم الآمال واللَّذات، ومنغِّصُ العيش ومفـرِّقُ الجماعـات هـو المَوتُ، الذي يَفِرُّ منه الناس، وهو ينتظرهم -لا أقول يلحقهم- بـل يلاقيهم فإنه أقرب ما يكـون إلـيهم، وهـم أبعـد شـيء عنـه، يـرون ضحاياه حولهم وأمامهم وعند أقدامهم، كأن الموتَ مكتـوب علـى غيرهم، وهم ناجون .. نُصَلِّي ولا نَعتبر، ونُشيِّع ولا نَـتَّعِظُ، ونَـدفِن ثم نَنسى، ولقد ترى في المقابر -والناسُ على شفير القبر- أنواعًا من عَجائِـب الغَفْلَـة. والمـوت لُغْـزٌ حيَّـر الفلاسـفة والـدَّهريين، وأما المؤمنون بالآخرة، فعرفوا أنه كيفيةٌ لإسـدال السِّتار عـن آخـر ساعة من زمن البقاء في الدنيا؛ ليكون بعد ذلك حيـاة أخـرى أبديـة سرمدية .

فَلَـوْ أَنَّـا إِذْ مِتْنَـا تُرِكْنَـا لَكَانَ المَوْتُ رَاحَـةَ كَـلِّ حَـيِّ

وَلَكِنَّـــا إِذَا مِتْنَـــا بُعِثْنَـــا وَنُسْأَلُ بَعْـدَ ذَا عَـنْ كُـلِّ شَـيٍّ

فالعاقل من جَدَّد توبته كلَّ وقْت، ولَم يَأمَن هَجْمةَ المـوت. قـال ابن حَجَر العَسْقَلاَني وقد أتمّ ثلاثًا وأربعين سنة:

أَخِي لاَ تُسَوِّفْ بِالمَتَابِ فقَدْ أَتَـى
نَـذِيرٌ مَشِـيبٍ لاَ يُفَارِقُـهُ الهَـمُّ
وَإِنَّ فَتىً مِـنْ عُمْـرِهِ أَرْبَعُـونَ قَـدْ
مَضَتْ مَعْ ثَلاَثٍ عَدَّهَا عُمُـرٌ جَـمُّ

ثم قال رحمه الله:

٦٥- غِـبْ وزُرْ غِبًّـا تَـزِدْ حُبًـا فَمَـنْ
أَكْثَـرَ التَّـرْدَادَ أَضْـنَاهُ المَلَـلْ

٦٦- خُـذْ بحَـدِّ السَّـيفِ واتْـرُكْ غِمْـدَه
واعتَبِـرْ فَضْـلَ الفتَـى دَونَ الحُلَـلْ

اللغة:

الغِبُّ: عاقبة الشيء، وفي الزيارة: أن تكون كل أسبوع، كما في القاموس (غبب)، والمشهور: أن الغِبّ في الزيارة: عدم الإكثار منها.

التَّردَادُ: المراد: الزيارة .

أضْنَاه: أضعفه .

حَدِّ السَّيْف: القاطع منه .

غِمْدَهُ: جرابه .

الحُلَلْ: جمع حُلّة .

الشرح:

هكذا الناظم ينتقل في حدائق الوعظ وبساتين النُّصح .. تارةً يزجر عن محظور، وحينًا يُوصي بمَأمور، وآونةً يلفِتُ إلى خلق، ووقتًا يُنبِّه على مَعيب، وساعةً يُرشِد إلى مَحْبوب، وطورًا يرغب في أَدَب، بلا رابطٍ خاص، ولا مناسبةٍ واضحَة، سوى معنى واحد، هو الإرشادُ إلى مداواة النُّفوس، وتهذيب السُّلوكِ، والتنبيهِ على جَوامعِ الأدب، ومثلُ هذا يكونُ فيه اللُّؤلُؤ المنثورُ خيرًا من الدُّرّ المنظوم، فمَثَلُهُ كمَثَلِ من يَزرع الحَبَّ، ويَخرصُ النَّخل، يَزرعُه متناثرًا، ويخرصه مَجْموعًا.

وهنا يُرشدُ إلى الإقلال من زيارة الأقارب والأَصْحاب، فإنَّهَا أَدومُ للأُلفة، وأبعدُ عن الإِملال، وهو معنى الأثرِ المَشْهُور: زُرْ غِبًّا، تَزْدَدْ حُبا، أي: زُرْ قليلا، حتى لو كانَ المزورُ من أقاربِك، والقُرب نِسبيٌّ، والملل نسبيٌّ، ولكلٍّ حالة لَبوسُها .

يقول الشاعر في معنى الإغبابِ من الزِّيارة:

عَلَيْـــكَ بِإغْبَـــابِ الزِّيَـــارَةِ إِنَّهـــا

إِذَا كَثُـرَتْ كَانَـتْ إِلَـى الهَجْـرِ مَسْـلَكَا

أَلَـــمْ تَـــرَ أَنَّ الغَيْـــثَ يُسْـــأَم دَائِمًـــا

وَيُطْلَـــبُ بِالأَيْـــدِي إِذَا هُـــوَ أَمْسَـــكَا

ومَن أكثرَ من التَّرداد على من يزور، سوف يـؤثِّر فيـه مـايراه بعـد ذلك من المَلل الذي يحصلُ للمزور، بسبب إكثاره من الزيارة، وهذا ممَّا يغتم له الإنسان، فيُضنِيه كما قال ابن الوردي .

والبيتُ الذي بعده إرشادٌ إلى أَخذ الأمورِ بقوةٍ وعزم، قال تعـالى: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مـريم: ١٢]، وقـال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣، ٩٣، الأعراف: ١٧١].

ومعنى البيت: اِضْربْ بحَدِّ السَّيفِ القاطِع، واتـرُك غِمـدَه، فإنـه لا يُقطَع به .

ولهذا أمثلةٌ كثيرةٌ في الحيَاة، تُضْـرَبُ للعامِـلِ والتَّـاجرِ والطَّالـبِ والكاتبِ والسَّائرِ، وغيرِهم .

ففي الوسائل يطلبُ منك التماسُ الوسيلة الصَّحيحة، وفي الغايات يطلب منك اختيار الهدف، وإصابةُ المحَزّ، فلا تضرِبْ بما لا يقطع،

ولا تضرب أيضًا في حديد باردٍ، ولا في غير الموضع المطلوبِ، بل لا بد من إصابة المحَز، وموافقة المَفصِل .

وقوله: واعتَبِرْ فَضْلَ الفتَى دَون الحُلَلْ، ميـزانٌ عَـدلْ، عليـك أن تَزِن به الناس، فالفضائلُ لا تعتبر بالمَظهر، وجميل الحُلل، وكمـال الزِّي، فكم من الناس من هو بـاهرُ الجَمـال، بهـيّ الطَّلعـة، يلـبسُ الثيابَ الفاخرة، والزينةَ النفيسةَ، ولكنهُ سَيِّء الملكة، لئيم الطِّبـاع، ممحوقُ الفَضْل، فلا تغتر بالمَظْهر وحده، فهو من القياس الفاسـد، وكم من إنسان رثِّ الهيئة، خَلِق الثياب، يزدَريه الناسُ، وهـو كَـريم الطَّبع، عزيزُ النفسِ، مَحْمود الشمائل .

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيـفَ فَتَزْدَرِيـهِ ... وَفِـي أَثْوَابِـهِ أَسَـدٌ هَصُـورُ

وَيُعْجِبُـكَ الطَّرِيـرُ فَتَبْتَلِيـهِ ... فَيُخْلِفُ ظَنَّـكَ الرَّجُـلُ الطَّرِيـرُ

ثم قال رحمه الله:

٦٧- لاَ يَضُـرُّ الفَضْـلَ إِقْـلاَلٌ كَمَـا

لاَ يَضُـرُّ الشَّـمْسَ إِطْبَـاقُ الطَّفَـلْ

٦٨- حُبُّـكَ الأَوْطَـانَ عَجْـزٌ ظَـاهِرٌ

فَـاغْتَرِبْ تَلْـقَ عَـنِ الأَهْـلِ بَـدَلْ

٦٩- فَبِمُكْـثِ المَـاءِ يَبْقَـى آسِـنا

وَسُـرَى البَـدْرِ بِـهِ البَـدْرُ اكْتَمَـلْ

اللغة:

الطَّفَل: آخر النهار .

آسِنًا: متغيرًا .

وسُرَى: السير ليلاً .

الشرح:

يعلِّل ماذكره قبلُ من اعتبار المضْمون والمخبَر دونَ المظهر، فَالفقرُ لا يُزْري بأهل الفضل والخَير، فقد كانَ كثيرٌ من الأنبياء والنبلاء فُقَراء، وبَقِيَ فضلهم وآثارهم، ولم ينقصهم إِقلالهُم، بل زادَ من ذِكرهم وشَرفِهم .

والطَّفَل: هو آخِر سَاعة من ساعاتِ النَّهار، الَّتي هي البُكُور .

وحُلُول الطَّفَل لا يَضُر الشَّمس، حِين يُدني الشَّمْسَ من الغُروب، فالشمسُ هي الشمسُ المشعَّة التي تملأ الكون ضياءً، فَلإن كان الطَّفَل يدينها من الغُروب، فإن البكورَ يرفع أَشرِعَتَه؛ لتضيء من نافذة أخرى، في مكان آخر، وهِي أيضًا على نفسِ المكان، تَغرُب لتُشرق مرةً أخرى .

إذن: فَالشَّمْسُ هي الشَّمسُ، وأَهل الفضل هم أهلُ الفضل، وإِنَّما الاعتبارُ بالجوهرِ والغَايَةِ .

وقوله: حُبُّكَ الأَوطَانِ . .. إلخ، حَثٌّ على مفارقة الأوطان، والضَّربِ في الأرض، وحيثُما ذُكر الضَّرب في الأرض في القرآنِ، فالمراد به: السَّفَر .. وما ذكره سبقَ إلى مَعناهُ الإمامُ الشافعيُّ، ومن ذلك قوله:

تَغَرَّبْ عَنِ الأَوْطَانِ إِنْ كُنْتَ طَالِبًا
رَبَاحًا فَفِي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
تَفَرُّجُ هَمٍّ، وَاكْتِسَابُ مَعِيْشَةٍ
وَعِلْمٌ، وَآدابٌ، وَصُحْبَةُ مَاجِدِ

وقال:

سَافِرْ تَجِدْ عِوَضًا عَمَّنْ تُفَارِقُهُ
وَانْصَبْ فَإِنَّ لَذِيذَ العَيْشِ فِي النَّصَبِ

ثم قال:

٧٠- أَيُّهَا العَائِبُ قَوْلِي عَابِثًا
إِنَّ طِيبَ الوَرْدِ مُؤْذٍ بِالجُعَلْ
٧١- عَدِّ عَنْ أَسْهُمِ لَفْظِي وَاسْتَتِرْ
لاَ يُصِيبَنَّكَ سَهْمٌ مِنْ ثُعَلْ

٧٢- لاَ يغُرَّنَـــك لِـــينٌ مِـــنْ فَتَـــى

إِنَّ لِلْحَيَّـــــاتِ لِينًـــــا يُعْتَـــــزَلْ

الشرح:

يخاطبُ الشاعرُ من يَعيبُ نظامَه وكلامَه على جهة العبَث والنَّقد لذاتِ النقد، لا لفائدةٍ يَحسُن السكوت عليها، ولا يزالُ الناس يعانون من مثلِ هذا الصِّنف الفارغ العقل إلا من السُّخْف والحُمْق.

وأسبابُه كثيرةٌ، منها: فَهْم سقِيمٌ، ورأيٌ ضَعيف، يؤدِّي إلى ذلك. قال الشاعر:

وكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيحًا

وَآفَتُهُ مِنَ الفَهْمِ السَّقِيمِ

وقال الآخر:

قَدْ تُنْكِرُ العَيْنُ ضَوْءُ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدِ

وَيُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ المَاءِ مَنْ سَقَمِ

وهل يعيبُ الشَّمسَ أن ضَعُف البصرُ عن رُؤيتها .

ومنها: حُب الشُّهرةِ والظُّهور .. وَموقفَ العاقل بصدد من عَلم منه ذلك أن ينساه ويتجاهله ويعاملَه بنقيض مقصودِه، ويبقى في مكانهِ العالي .

ومنها: الرغبةُ في المكابرةِ والجَدَل .

ومنها: الحَسَد، فيَغُضُّ من شأن الحَق وصَاحبه، وصَاحب هذه الآفةِ لا بدَّ أن تظهرَ علاماتُ الحَسَد في مقاله.

ويصدُق على النوعِ الأولِ والأخير قولُه: إِنَّ طِيبَ الوَرْدِ مُؤْذٍ بِالجُعَلْ .

وذلك أن الجُعَل (وهو دُوَيْبَّةٌ صغيرةٌ سوداءُ)، لا يعيشُ إلا في الزَّبْل وبين العَذِرة، فإذا شَمَّ رائحةً طيبةً، تأذَّى بتلكَ الرائحةِ، شأنُه شأنُ من تربَّى على الجَهل وأمراضِ القلب، فأصبح يؤذيه ريحُ العلمِ ونفحاتُ الإيمان .

ثم أخذ الشاعرُ يحذِّر من التعرّض له، وغمزِ كلماته وقصيدِه، وينصح بالابتعاد عنها والاستتار؛ لأنها سهامٌ صائبة نَفَّاذة لا تخطئُ رَميّتَها، كَسِهامِ الحَيِّ العربي المعروفِ ببني ثُعَل، شُهِروا بالرَّمي وجودَته، وهم الذين عناهم القائل:

إِنِّي أُرِيدُ طُروقَ الحَيِّ مِن إضَمٍ وَقَدْ حَمَاهُ رُماةٌ مِن بَنِي ثُعَلِ

وقد يغتر الإنسان بلطافة خصمه ولينه، فيأمن من غوائله، ويستضعفه، ظنًا منه أنّ باطنَه كظاهرِه، وهو في الحقيقة شديدُ البأس، قويُّ العزم، صادقُ العداء لمن عاداه، مَثَلُه مَثَلُ الحَيَّة، لَيِّنَةُ المَلْمَس، سَهْلَة الحَرَكَة، وفي جَوفِها السَّمُّ الزُّعَافُ (بالفاء والقاف)، والحَتْفُ المُؤكَّد، وكأن الشَّاعر يعني نفسَه يُحذِّر من استضعافه .

٧٣- أَنَــا مِثْــلُ المَــاءِ سَــهْلٌ سَــائِغٌ

وَمَتَـــــى سُـــــخِّنَ آذَى وَقَتَـــــلْ

٧٤- أَنَــا كَــالخَيْزُورِ صَــعْبٌ كَسْــرُهُ

وَهْــوَ لَــيْنٌ، كَيْفَمَــا شِــئْتَ انْفَتَــلْ

٧٤- غَيْـرَ أَنِّـي فِـي زَمَـانٍ مَـنْ يَكُـنْ

فِيــهِ ذَا مَــالٍ هُــوَ المَــوَلى الأَجَــلْ

٧٥- وَاجِــبٌ عِنْــدَ الــوَرَى إِكْرَامَــهُ

وَقَلِيــلُ المَــالِ فِــيهِمْ يُسْــتَقَلْ

اللغة:

الخَيْـزُور: شَـجرٌ لـه عـروقٌ طويلـةٌ، وكـلُّ عـودٍ رَطـب، وهـو الخَيزُران، ووجدتُها في المطبوعاتِ بلفظ الخيزُران، ولا يستقيم بـه البيتُ .

لَيْن: بتخفيف الياء لغة فيه، مثل ضيِّق وضَيْق، وهيِّن وهَيْن .

انْفَتَل: من الفتل، وهو الإبرام .

المَـوْلَى: السَّـيد، ويُطلـق علـى العبـد، والقريـب وابـن العـم، والصَّديق .

الوَرَى: الخلق .

الشرح:

من الناس من هو كالعُود اللَّين، مس أراد كَسْرَه صَعُبَ عليه ذلك؛ لأنَّ القوةَ تكمُن في الضَّعف، ومَن أَرَاد عطفَه طاوَعَه العُود على ذلك، وانفتَل له، وقد يكون مع القوَّة ضعفٌ أيضًا .

ومن صفات المؤمنين أنهم أذلةٌ على المؤمنين، أعزةٌ على الكافرين .

وفي الناسِ مَن هو حادُّ الطبع، يتَّقِدُ نارًا عند المغاضَبَة، حتى إذا لوين وتُلطِّف له، ولم يعانَد عاد حَمَلاً وديعًا، وماء باردًا .

وأكثر الأذكياء تعتريهم حِدَّة، ومن غلب عقلُه على طبعه استطاعَ موازنةَ ذلك، والتحكُّمَ فيه. وفي ترجمة ابنِ تيمِيَةَ أنه كانتْ تعتريه حِدَّةٌ يقهرُها بالحِلم، وكان يأتيه السَّائل، فيفيدُه إن أراد الإفادة، فإذا أراد المماحكة واللّجاج عرَّفه بنفسِه، وأراه الجمرةَ بعد التّمرة.

ومن النّاس من يجمع إلى الحِدة ذكاءً وحُمقًا، فيتجاوز في قوله وفعله، فلا يصادفُ الإصابةَ .

وابنُ الورديِّ قال إنه من ذلك النَّوع الأول الذي من شَأنه أن يُجَلَّ ويُكرَم، غير أنه وُجد في زَمَنٍ لا يُقدِّر فيه الناسُ إلا المالَ، فهو الجاه والمنصِب، والعلمُ، والحكمةُ، والعقلُ، والسَّدادُ،

والشَّجاعةُ، والتواضعُ، والجُود، والقوةُ، وكل صفة حسنى. وأما مَن لا مالَ له، فإنه يَجمع كلَّ نعتٍ قَبيح، وكلّ خَصْلة ذميمةٍ.

مَنْ كَانَ يَمْلِكُ دِرْهَمَيْنِ تَعَلَّمَتْ شَفَتَاهُ تَحسينَ الكَلاَمِ وَقَالا

وَتَقَدَّمَ الفُصَحَاءُ فَاسْتَمَعُوا لَهُ وَرَأَيْتَهُ بَيْنَ الوَرَى مُحْتَالا

لَوْلاَ دَرَاهِمُهُ الَّتي فِي كِيسِهِ لرَأَيْتَهُ شَرَّ البَرِيَّةِ حَالا

إِنَّ الغَنِيَّ وَإِنْ تَكَلَّمَ مُخْطِئًا قَالُوا: أَصَبْتَ، وَصَدَّقُوا مَا قَالا

وَإِذَا الفَقِيرُ أَصَابَ، قَالُوا كُلُّهُمْ: أَخْطَأْتَ يَاهَذَا، وَقُلْتَ ضَلاَلا

إِنَّ الدَّرَاهِمَ فِي المَجَالِسِ كُلِّهَا تَكْسُو الرِّجَالَ مَهَابَةً وَجَمَالا

فَهِيَ اللِّسَانُ لِمَنْ أَرَادَ فَصَاحَةً وَهِيَ السِّلاَحُ لِمَنْ أَرَادَ قِتَالا

ولم يُصبِ الشَّاعر حينما اتَّهم زمانَه وحده بذلك، بل هذا حاصل في زمانه وزمانِ مَن قَبله، وبعده، وهل فَتَن الناسَ إلا الدينارُ والدِّرهَمُ. يقول بعض الظّرفاء:

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ مَالُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُ مَالُ

وَمَنْ لاَ عِنْدَهُ مَالُ فَعَنْهُ النَّاسُ قَدْ مَالُو

رَأَيْتُ النَّاسَ قَدْ ذَهَبُوا إِلَى مَنْ عِنْدَهُ ذَهَبُ

وَمَنْ لاَ عِنْدَهُ ذَهَبُ فَعِنَهُ النَّاسُ قَدْ ذَهَبُوا

رَأَيْـــتُ النَّـــاسَ مُنْفَضَّـــةْ إِلَـــى مَـــنْ عِنْـــدَهُ فِضَّـــةْ

وَمَـــن لاَ عِنْـــدَهُ فِضَّـــةْ فعَنْـــهُ النَّـــاسُ مُنْفَضَّـــةْ

ثم قال رحمه الله:

٧٧- كُـلُّ أَهْـلِ العَصْـرِ غُمْـرٌ، وَأَنَـا

مِـــنْهُمُ فَـــاتْرُكْ تَفَاصِـــيلَ الجُمَـــلْ

اللغة:

العَصْر: أراد به الزمان الذي عاش فيه .

غُمْرٌ: بضم العين: جاهل، ومادة (غمر) تدل على ستر وتغطية .

وفي نظم المثلث:

إِنَّ دُمُـــوعِي غَمْـــرُ وَلَـــيْسَ عِنْـــدِي غِمْـــرُ

يَـــا أَيُّهَـــذا الغُمْـــرُ أَقْصِـــرْ عَـــنِ التَّعَتُّـــبِ

وفي شرحه المنظوم:

يُقَـالُ لِلْمَـاءِ الكَـثِيرِ غَمْـرُ وَالحِقْدُ فِي الصَّدْرِ فَذَاكَ غِمْـرُ

وَالرَّجُـلُ الجَاهِـلُ فَهُـو غُمْـرُ فَلاَ تَكُـنْ مِـنْ جُمْلَـةِ الجُهَّـالِ

الشرح:

حكم الشاعر على جميع أهل عصره بأنهم أَغْرار، قَليلو التَّجرِبة، وبَالَغ في ذلك، فَقَد كان في عصره ومِصْرِه من لم يُعرف بعده مَثيلٌ، ولكنّ الشَّرَّ إذا غَلب يُنسي ماعداه من الخَير، والإنسان إذا أُوذي أو غَضب أو كَرِه أو تشاءَم، أو جاوَرَ الأشرارَ، أو خالطَهم، أو عامَلهم في أمر الدُّنيا، وجد مايُؤْيِسُهُ، ويَنْزِعُ حُسنَ الظَّن من قَلبه بعُموم الناس.

ومن حُسن تواضعِ الشَّاعر وفطانَته أن قال: (وَأَنَا مِنْهُم)، قاله تواضُعًا واحتقارًا لنفسه، واحترازًا من تزكيةِ النَّفس المَبنيةِ على ذَمِّ الآخَرين كلِّهم، كما يفعل بعضُ الناس مِن ذَمِّهِ لِلكبار، ونقدِه لهم؛ ليرفع من شأن نفسِه، فيسيءُ مرتين، فهو أَسْوَأُ مِمَّن يمدَح نفسه ابتداء، وهذا أَسوأ مِمَّن يَمْدَح نفسَه بذمِّها، وإظهار التواضع.. كمن يقول: أحقرُ العباد إلى الله، أو أنا أقلُّكُم عِلمًا وفهمًا ودينًا، ونحو ذلك مما نسمعُه من كثيرٍ من الواعظين والجُلاّسِ.

ولما كان كلامُ المصنف باعثًا على الاستغرابِ من هذه الدعوى، وداعيًا إلى السؤالِ عن معنى هذا الإجمال، طلب تركَ الاستفصالِ في المقالِ، وفزع إلى الإجمال، فما كلُّ شيء يقالُ..

وتمّ «تفاصيل الجُمل» شرحًا مفصَّلاً، لم أرد التطويل فيه بكثرة النقل والحواشي، والإطالة بتحقيق المسائل وتدقيقها، وإنما هي

خواطر في الذهن، ومعرفة في النفس وضعتها في ظلال النظم .. ولا يهولنَّك ما جاء في صدر الكتاب من ثناء صاحبي، فإنه مما أَلِفَتْه التراجم .. وقد شرحها: مسعود القناوي، المتوفى بعد (١٢٠٥هـ)، سماه «فتح الرحيم الرحمن في شرح نصيحة الإخوان»، أكثر فيه من الاستطراد .

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وآله، وصحبه أجمعين .

الفِهْرِسْت

بين يدي التفاصيل	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٩
مقدمة الطبعة الأولى .. وفيها الكلام عن الحكمة والتجربة وحال العصر .. ولغز في لامية ابن الوردي	١١
ترجمة ابن الوردي	١٥
العُزلة	١٧
زمن الصِّبا .. وذهاب اللذة وبقاء الحسرة	١٩
ضحايا الحُب .. لا ديةٌ ولا قَوَدٌ	٢١
اجتناب اللهو ودواعي الفحشاء	٢٢
استطراد ابن الوردي فيما لا يحسن الاستطراد فيه	٢٤
شمس الضحى	٢٤
استطراد آخر . ..	٢٤
تدقيقات لغوية .. والكلام عن منتهى الجمال، وحال الدنيا	٢٦
الخمرة وغوائلها	٢٨
تقوى الله هي البطولة الحقيقية	٢٩
الركون إلى الشرع لا إلى الكهان، وفضيحة عن المنجِّمين	٣٠

قدرة الخالق	٣٢
لغويات وتعريفات .. والكلام عن الموت وهلاك السابقين	٣٣
وصايا في طلب العلم وترك الكسل	٣٧
النوم وفلسفته	٤٠
الاحتفال بالفقه وترك العجز .. وبسط في العلم وفضله	٤٣
عظمة العلم وأهله: والنحو كمال الكلام	٤٥
نظم الشعر، والترفع عن المديح طلبًا للعطايا	٤٧
وكرامة السائل والمسئول، والثقة بالله	٤٩
أمرّ الألفاظ وأعذبها	٥١
مُلك كِسرى، والزهد في الدنيا، وأمر الرزق	٥٢
اطِّراح الدنيا، وحال الناس فيها جهالاً وعلماء	٥٥
حال الشجعان فيها والجبناء .. والحيلة في ترك الحيلة	٥٧
ابن الوردي يدعو على البخلاء	٥٩
لا تقُل أصلي وفصلي، وقد يكون السؤدد بلا نسب، ودليل ذلك، واتصال نسب المصنِّف بأبي بكر الصديق رضي الله عنه	٦٠
قيمة الإنسان ما يُحسنه، والكتمان، والكسب، والجِد، واجتناب الحمقى	٦٣
التبذير والبخل والإسراف، وحفظ اللسان، والتغالي	٦٧
لا يخلو أحد من ضِد، واجتناب النمّام، والمداراة	٧٠

ملاينة السلطان، والحكم، وحال الناس مع القضاة، وحال القاضي ٧٢
لفظة القاضي ٧٦
هل تساوي لذة الحُكم مرارة العزل ٧٦
الولاية .. والمنصب ونصب المنصب ٧٧
تقصير الأمل في الدنيا دليل العقل .. وملاحقة الموت ٧٨
إغباب الزيارة، وعدم الاغترار بالمظهر ٨١
الفقر لا يعيب أهل الفضل، والاغتراب ٨٤
المصنِّف يحذِّر من النقد عبثا ٨٦
المصنِّف يصف زمانه ونفسه ٨٩
اترك تفاصيل الجمل ٩٢
الخاتمة بيان واعتذار ٩٣
الفِهرسْت ٩٥